❁ ❁ ❁

تفسير سورة القيامة

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفياً، جار الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسوم عليه ها هنا هو إثبات الميعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد؛ ولهذا قال تعالى:﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ ، قال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة. وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً. هكذا حكاه ابن أبي حاتم. وقد حكى ابن جرير، عن الحسن والأعرج أنهما قرآ: «لأقسم بيوم القيامة»، وهذا يوجه قول الحسن؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة. والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله، وهو المروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير. فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة، فقال قرة بن خالد، عن الحسن البصري

في هذه الآية: إن المؤمن ـ والله ـ ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُماً ما يعاتب نفسه. وقال جُوَيْبر: بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾، قال: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، عن إسرائيل، عن سماك: أنه سأل عكرمة عن قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ قال: يلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا. ورواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن وكيع عن إسرائيل. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن ابن جُرَيج، عن الحسن بن مسلم، عن سعيد بن جبير في: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾، قال: تلوم على الخير والشر. ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك: فقال: هي النفس اللؤوم. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: اللوامة: المذمومة. وقال قتادة: ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾: الفاجرة. قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ أي: يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾، قال سعيد بن جُبير والعوفي، عن ابن عباس: أن نجعله خُفاً أو حافراً. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وابن جرير. ووجّهه ابنُ جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا. والظاهر من الآية أن قوله: ﴿قَٰدِرِينَ﴾، حال من قوله: ﴿نَّجْمَعَ﴾ أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بل سنجمعها قادرين على أن نُسوّي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه ـ وهي أطراف أصابعه ـ مستوية. وهذا معنى قول ابن قتيبة، والزجاج. وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾، قال سعيد، عن ابن عباس: يعني يمضي قدماً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ يعني: الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة. وقال مجاهد: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: يمضي أمامه راكباً رأسه. وقال الحسن: لا يلقى ابنُ آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُماً قُدُماً، إلا من عصمه الله. وروي عن عكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي، وغير واحد من السلف: هو الذي يعجل الذنوب ويُسوّف التوبة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب. وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد؛ ولهذا قال بعده: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾؟ أي: يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠]. وقال تعالى ها هنا: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾، قال أبو عمرو بن العلاء: ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء، أي: حار. وهذا الذي قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر على شيء، من شدة الرعب. وقرأ آخرون: «برَق» بالفتح، وهو قريب في المعنى من الأول. والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور. وقوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾، قال مجاهد: كُوّرا. وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ١، ٢] وروي عن ابن مسعود أنه قرأ: «وجُمع بين الشمس والقمر». وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ أي: إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذٍ يريد أن يفر ويقول: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ أي: هل من ملجأ أو موئل؟ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾. قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: أي لا نجاة. وهذه كقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧] أي: ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال ها هنا: ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي: المرجع والمصير. ثم قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وهكذا قال ها هنا: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ يقول: سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه. وقال قتادة: شاهد على نفسه. وفي رواية قال: إذا شئت ـ والله ـ رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم غافلاً عن ذنوبه، وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم، تُبصر القذاة في عين أخيك، وتترك الجذل في عينك لا تبصره. وقال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾: ولو جادل عنها فهو بصير عليها. وقال قتادة: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾: ولو اعتذر يومئذٍ بباطل لا يقبل منه. وقال

السدي: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾: حجته. وكذا قال ابن زيد، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابن جرير. وقال قتادة، عن زرارة، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾، يقول: لو ألقى ثيابه. وقال الضحاك: ولو أرخى ستوره، وأهل اليمن يسمون الستر: المعذار. والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٨﴾ [المجادلة ١٨]. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ هي الاعتذار، ألم تسمع أنه قال: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وقال: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل: ٨٧]، ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ [النحل: ٢٨]، وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾.

هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابقُ الملك في قراءته، فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعُه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ أي: بالقرآن، كما قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ثم قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في صدرك، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله ﷻ، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن أبي عوانة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه ـ قال: فقال لي ابن عباس: أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه. وقال لي سعيد: وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه ـ فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾، قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾: فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾. فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه. وقد رواه البخاري ومسلم، من غير وجه، عن موسى بن أبي عائشة، به. ولفظ البخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله ﷻ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عُرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾. وهكذا قال الشعبي، والحسن البصري، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد: إن هذه الآية نزلت في ذلك.

وقد روى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه، فقال الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ أن نجمعه لك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: أن نقرئك فلا تنسى. وقال ابن عباس وعطية العوفي: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾: تبيين حلاله وحرامه. وكذا قال قتادة: وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٢١﴾ أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم: أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾، من النضارة، أي حسنة بهيّة مشرقة مسرورة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري، رحمه الله، في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً». وقد ثبت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ وما في الصحيحين ـ: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم ترون ربكم كذلك». وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا». وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتّان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وفي أفراد مسلم، عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة» قال: «يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟» قال: «فيكشف

الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة». ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وفي أفراد مسلم، عن جابر في حديثه: «إن الله يتجلَّى للمؤمنين يضحك» ـ عني في عرصات القيامة ـ ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات، وفي روضات الجنات. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الملك بن أبجر، حدثنا ثُوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه. وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن شبابة، عن إسرائيل، عن ثُوير قال: «سمعت ابن عمر...» فذكره، قال: ورواه عبد الملك بن أبجر، عن ثُوير، عن مجاهد، عن ابن عمر، قوله. وكذلك رواه الثوري، عن ثُوير، عن مجاهد، عن ابن عمر، ولم يرفعه. ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهُداة الأنام. ومن تأول ذلك بأن المراد بـ﴿إِلَىٰ﴾ مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، فقال: تنتظر الثواب من ربها. رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضاً فقد أبعد هذا القائل النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، قال الشافعي، رحمه الله: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه ﷻ. ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم، حدثنا المبارك، عن الحسن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ قال: حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، قال: تنظر إلى الخالق، وحُقّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق. وقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾: هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة. قال قتادة: كالحة. وقال السدي: تغير ألوانها. وقال ابن زيد: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابسة. ﴿تَظُنُّ﴾ أي: تستيقن، ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر. وقال السدي: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار. وهذا المقام كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وكقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾، [عبس: ٣٨ ـ ٤٢] وكقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾، إلى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: ٢ ـ ١٠]، في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ـ ثبتنا الله هناك بالقول الثابت ـ فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾، إن جعلنا ﴿كَلَّا﴾ رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً. وإن جعلناها بمعنى (حقاً) فظاهر، أي: حقاً إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧]. وهكذا قال ها هنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾، ويذكر ها هنا حديث بُسر بن جحاش الذي تقدم في سورة «يس». والتراقي: جمع ترقوة، وهي قريبة من الحلقوم. ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ قال: عكرمة، عن ابن عباس: أي من راق يرقي؟ وكذا قال أبو قلابة: ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: من طبيب شاف. وكذا قال قتادة، والضحاك، وابن زيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ قال: قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. وبهذا الإسناد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ قال: التفت عليه الدنيا والآخرة. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾، يقول: آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي بالشدة إلا من رحم الله. وقال عكرمة: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾: الأمر العظيم بالأمر العظيم. وقال مجاهد: بلاء ببلاء. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾، هما ساقاك إذا التفتا. وفي رواية عنه: ماتت

رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جوالاً. وكذا قال السدي، عن أبي مالك. وفي رواية عن الحسن: هو لفهما في الكفن. وقال الضحاك: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾: اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾أي: المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله ﷻ: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. كما ورد في حديث البراء الطويل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. وقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾: هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾أي: جذلاً أشراً بطراً كسلاناً، لا همة له ولا عمل، كما قال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٣١]، وقال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي: يرجع، ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ١٣ ـ ١٥]. وقال الضحاك: عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾أي: يختال. وقال قتادة، وزيد بن أسلم: يتبختر. قال الله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾، وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به المتبختر في مشيته، أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال: في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، وكقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٤٦]، وكقوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥]، وكقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. إلى غير ذلك. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الرحمن ـ يعني ابن مهدي ـ عن إسرائيل، عن موسى بن أبي عائشة قال: سألت سعيد بن جبير قلت: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾؟ قال: قال النبي ﷺ لأبي جهل، ثم نزل به القرآن.

وقال أبو عبد الرحمن النسائي: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثنا أبو النعمان، حدثنا أبو عوانة ـ (ح) وحدثنا أبو داود: حدثنا محمد بن سليمان، حدثنا أبو عوانة ـ عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾؟ قال: قاله رسول الله ﷺ ثم أنزله الله ﷻ. قال ابن أبي حاتم: وحدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا شعيب بن إسحاق، حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾: وعيد على أثر وعيد، كما تسمعون، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبيّ الله بمجامع ثيابه، ثم قال: «أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى». فقال عدو الله أبو جهل: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشي بين جبليها. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾قال السدي: يعني: لا يبعث. وقال مجاهد، والشافعي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لا يؤمر ولا ينهى. والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة. والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال مستدلاً على الإعادة بالبداءة فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾؟ أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يمنى يراق من الأصلاب في الأرحام ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾أي: فسار علقة، ثم مضغة، ثم شُكل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً آخر سوياً سليم الأعضاء، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره؛ ولهذا قال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾. ثم قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾أي: أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة، وإما مساوية على القولين في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. والأول أشهر كما تقدم في سورة «الروم» بيانه وتقريره، والله أعلم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا شبابة، عن شعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن آخر: أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفع صوته بالقرآن، فإذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟ قال: سبحانك اللهم فبلى. فسئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك. وقال أبو داود، رحمه الله: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟ قال: سبحانك، فبلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. تفرد به أبو داود، ولم يسم هذا الصحابي، ولا يضر ذلك. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان، حدثني إسماعيل بن أمية: سمعت أعرابياً يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾فانتهى إلى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ

ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟ فليقل: بلى. ومن قرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟ فليقل: آمنا بالله». ورواه أحمد، عن سفيان بن عيينة. ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر، عن سفيان بن عيينة. وقد رواه شعبة، عن إسماعيل بن أمية قال: قلت له: من حدثك؟ قال رجل صدق، عن أبي هريرة. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبلى». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟ قال: سبحانك، فبلى.

آخر تفسير سورة «القيامة» ولله الحمد والمنة

❋ ❋ ❋

(٧٥) سورة القيامة مكية وآياتها أربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المفسرون ذكراو فى لفظة (لا) فى قوله (لا أقسم) ثلاثة أوجه : (الأول) أنها صلة زائدة والمعنى (أقسم بيوم القيامة) ونظيره (لئلا يعلم أهل الكتاب) وقوله (ما منعك أن لا تسجد ، فبما رحمة من الله) وهذا القول عندى ضعيف من وجوه : (أولها) أن تجويز هذا يفضى إلى الطعن فى القرآن ، لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفى إثباتاً والإثبات نفياً وتجويزه يفضى إلى أن لا يبقى الاعتماد على إثباته ولا على نفيه (وثانيها) أن هذا الحرف إنما يزاد فى وسط الكلام لا فى أوله ، فإن قيل [قال] الكلام عليه من وجهين : (الأول) لانسلم أنها إنما تزاد فى وسط الكلام ، ألا ترى إلى أمرىء القيس كيف زادها فى مستهل قصيدته وهى قوله :

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

(الثانى) هب أن هذا الحرف لايزاد فى أول الكلام إلا أن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض ، والدليل عليه أنه قد يذكر الشىء فى سورة ثم يجىء جوابه فى سورة أخرى كقوله تعالى (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) ثم جاء جوابه فى سورة أخرى وهو قوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وإذا كان كذلك ، كان أول هذه السورة جارياً مجرى وسط الكلام (والجواب عن الأول) أن قوله لا وأبيك قسم على النفى ، وقوله (لا أقسم) نفى للقسم ، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز ، وإنما قلنا إن قوله لا أقسم نفى للقسم ، لأنه على وزان قولنا لا أقتل لاأضرب ، لا أنصر ، ومعلوم أن ذلك يفيد النفى . والدليل عليه أنه لو حلف لا يقسم كان البر بترك القسم ، والحنث بفعل القسم ، فظهر أن البيت المذكور ، ليس من هذا الباب (وعن الثانى) أن القرآن كالسورة الواحدة فى عدم التناقض ، فإما فى أن يقرن بكل آية ما قرن بالآية الأخرى فذلك غير جائز ، لأنه يلزم جواز أن يقرن بكل إثبات حرف النفى فى سائر الآيات ، وذلك يقتضى انقلاب كل إثبات نفياً وانقلاب كل نفى إثباتاً ، وإنه لايجوز (وثالثها) أن المراد من قولنا لا صلة أن لغو باطل ، يجب طرحه وإسقاطه حتى ينتظم الكلام ، ومعلوم أن وصف كلام الله تعالى بذلك

لا يجوز (القول الثاني) للمفسرين في هذه الآية ، ما نقل عن الحسن أنه قرأ ، لأقسم على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبر مبتدأ محذوف ، معناه لأنا أقسم ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف واتفقوا في قوله ، ولا أقسم بالنفس اللوامة على لا أقسم ، قال الحسن معنى الآية أني أقسم بيوم القيامة لشرفها ، ولا أقسم بالنفس اللوامة لخساستها ، وطعن أبو عبيدة في هذه القراءة وقال لو كان المراد هذا لقال لأقسمن لأن العرب لا تقول لأفعل كذا ، وإنما يقولون لأفعلن كذا ، إلا أن الواحدي حكى جواز ذلك عن سيبويه والفراء ، واعلم أن هذا الوجه أيضاً ضعيف ، لأن هذه القراءة شاذة ، فهب أن هذا الشاذ استمر ، فما الوجه في القراءة المشهورة المتواترة ؟ ولا يمكن دفعها وإلا لكان ذلك قدحاً فيما ثبت بالتواتر ، وأيضاً فلا بد من إضمار قسم آخر لتكون هذه اللام جواباً عنه ، فيصير التقدير : والله لأقسم بيوم القيامة ، فيكون ذلك قسماً على قسم ، وإنه ركيك ولأنه يفضي إلى التسلسل (القول الثالث) أن لفظة لا وردت للنفي ، ثم ههنا احتمالان (الأول) أنها وردت نفياً لكلام ذكر قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل لا ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل أقسم بيوم القيامة ، وهذا أيضاً فيه إشكال ، لأن إعادة حرف النفي مرة أخرى في قوله (ولا أقسم بالنفس اللوامة) مع أن المراد ما ذكروه تقدح في فصاحة الكلام .

(الاحتمال الثاني) أن لا ههنا لنفي القسم كأنه قال لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك ، وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح ، ويمكن تقدير هذا القول على وجوه أخر (أحدها) كأنه تعالى يقول (لا أقسم) بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإن هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه (وثانيها) كأنه تعالى يقول (لا أقسم) بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب ، فإن إثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى ، من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم ، ثم قال بعده (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) أي كيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد مع ظهور فساده (وثالثها) أن يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الإنكار والتقدير ألا أقسم بيوم القيامة . ألا أقسم بالنفس اللوامة على أن الحشر والنشر حق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في النفس اللوامة وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس إن كل نفس فإنها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت برة أو فاجرة ، أما البرة فلأجل أنها لم تزد على طاعتها ، وأما الفاجرة فلأجل أنها لم تشتغل بالتقوى ، وطعن بعضهم في هذا الوجه من وجوه (الأول) أن من يستحق الثواب لا يجوز أن يلوم نفسه على ترك الزيادة ، لأنه لو جاز منه لوم نفسه على ذلك لجاز من غيره أن يلومها عليه (الثاني) أن الإنسان إنما يلوم نفسه عند الضجارة وضيق القلب ، وذلك لا يليق بأهل الجنة حال كونهم في الجنة ، ولأن المكلف يعلم أنه لا مقدار من

الطاعة إلا ويمكن الإتيان بما هو أزيد منه ، فلو كان ذلك موجباً للوم لامتنع الانفكاك عنه وماكان كذلك لا يكون مطلوب الحصول ، ولا يلام على ترك تحصيله (والجواب) عن الكل أن يحمل اللوم على تمنى الزيادة ، وحينئذ تسقط هذه الأسئلة (وثانيها) أن النفس اللوامة هى النفوس المتقية التى تلوم النفس العاصية يوم القيامة بسبب أنها تركت التقوى .

(ثالثها) أنها هى النفوس الشريفة التى لاتزال تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الطاعة ، وعن الحسن أن المؤمن لا تراه إلا لائما نفسه ، وأما الجاهل فإنه يكون راضياً بما هو فيه من الأحوال الخسيسة (ورابعها) أنها نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة (وخامسها) المراد نفوس الأشقياء حين شاهدت أحوال القيامة وأهوالها ، فإنها تلوم نفسها على ماصدر عنها من المعاصى ، ونظيره قوله تعالى (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت) (وسادسها) أن الإنسان خلق ملولا ، فأى شىء طلبه إذا وجده مله ، فحينئذ يلوم نفسه على أنى لم طلبته ، فلكثرة هذا العمل سمى بالنفس اللوامة ، ونظيره قوله تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) واعلم أن قوله لوامة ، ينبىء عن التكرار والإعادة ، وكذا القول فى لوام وعذاب وضرار ،

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إعلم أن فى الآية إشكالات (أحدها) ما المناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة ، حتى جمع الله بينهما فى القسم ؟ (وثانيها) المقسم عليه ، هو وقوع القيامة فيصير حاصله أنه تعالى أقسم بوقوع القيامة (وثالثها) لم قال (لا أقسم بيوم القيامة) ولم يقل والقيامة ، كما قال فى سائر السور ، والطور والذاريات والضحى ؟ (والجواب) عن الأول من وجوه (أحدها) أن أحوال القيامة عجيبة جداً ، ثم المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوامة . أعنى سعادتها وشقاوتها ، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة (وثانيها) أن القسم بالنفس اللوامة تنبيه على عجائب أحوال النفس على ما قال عليه الصلاة والسلام « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ومن أحوالها العجيبة ، قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقوله (إنا عرضنا الأمانة - إلى قوله - وحملها الإنسان) وقال قائلون القسم وقع بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث إنها أبداً تستحقر فعلها وجدها واجتهادها فى طاعة الله ، وقال آخرون إنه تعالى أقسم بالقيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة ، وهذا على القراءة الشاذة التى رويناها عن الحسن ، فكأنه تعالى قال (أقسم بيوم القيامة) تعظيما لها ، ولا أقسم بالنفس اللوامة تحقيراً لها ، لأن النفس اللوامة إما أن تكون كافرة بالقيامة مع عظم أمرها ، وإما أن تكون فاسقة مقصرة فى العمل ، وعلى التقديرين فإنها تكون مستحقرة .

﴿ وأما السؤال الثانى ﴾ فالجواب عنه ما ذكرنا أن المحققين قالوا : القسم بهذه الأشياء قسم بربها وخالقها فى الحقيقة ، فكأنه قيل أقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة .

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾

﴿ وأما السؤال الثالث ﴾ فجوابه أنه حيث أقسم قال (والطور ، والذاريات) وأما ههنا فإنه نفى كونه تعالى مقسما بهذه الأشياء ، فزال السؤال والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى جواب القسم وجوهاً (أحدها) وهو قول الجمهور أنه محذوف على تقدير ليبعثن ويدل عليه (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) ، (وثانيها) قال الحسن وقع القسم على قوله (بلى قادرين) ، (وثالثها) وهو أقرب أن هذا ليس بقسم بل هو نفى للقسم فلا يحتاج إلى الجواب ، فكأنه تعالى يقول لا أقسم بكذا وكذا على شيء ، ولكنى أسألك (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المشهور أن المراد من الإنسان إنسان معين ، روى أن عدى بن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق ، وهما اللذان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهما « اللهم اكفنى شر جارى السوء » قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد حدثنى عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يامحمد ولم أؤمن بك كيف يجمع الله العظام ؟ فنزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس يريد بالإنسان ههنا أبا جهل ، وقال جمع من الأصوليين بل المراد الإنسان المكذب بالبعث على الإطلاق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ قتادة (أن لن يجمع عظامه) على البناء للمفعول ، والمعنى أن الكافر ظن أن العظام بعد تفرقها وصيرورتها تراباً واختلاط تلك الأجزاء بغيرها وبعد ما نسفتها الرياح وطيرتها فى أباعد الأرض لا يمكن جمعها مرة أخرى وقال تعالى فى جوابه (بلى) فهذه الكلمة أوجبت مابعد النفى وهو الجمع ، فكأنه قيل بل يجمعها ، وفى قوله (قادرين) وجهان (الأول) وهو المشهور أنه حال من الضمير فى نجمع أى نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول وهذا الوجه عندى فيه إشكال وهو أن الحال إنما يحسن ذكره إذا أمكن وقوع ذلك الأمر لا على تلك الحالة تقول رأيت زيداً راكباً لأنه يمكن أن نرى زيد غير راكب ، وههنا كونه تعالى جامعاً للعظام يستحيل وقوعه إلا مع كونه قادراً ، فكان جعله حالا جارياً مجرى بيان الواضحات ، وإنه غير جائز (والثانى) أن تقدير الآية كنا قادرين على أن نسوى بنانه فى الإبتداء فوجب أن نبقى قادرين على تلك التسوية فى الانتهاء ، وقرىء قادرون أى ونحن قادرون ، وفى قوله (على أن نسوى بنانه) وجوه : (أحدها) أنه نبه بالبنان على بقية الأعضاء ، أى نقدر على أن نسوى بنانه

بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾

بعد صيرورته تراباً كما كان ، وتحقيقه أن من قدر على الشيء في الابتداء قدر أيضاً عليه في الإعادة وإنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم خلقه ، فكأنه قيل نقدر على ضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولا من غير نقصان ولا تفاوت ، فكيف القول في كبار العظام (وثانيها) بلى قادرين على أن نسوى بنانه أي نجعلها مع كفه صفيحة مستوية لا شقوق فيها كخف البعير ، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وسائر الأعمال اللطيفة التي يستعان عليها بالأصابع ، والقول الأول أقرب إلى الصواب .

قوله تعالى : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ .

اعلم أن قوله (بل يريد) عطف على أيحسب ، فيجوز فيه أن يكون أيضاً استفهاماً كأنه استفهم عن شيء ثم استفهم عن شيء آخر ، ويجوز أن يكون إيجاباً كأنه استفهم أولا ثم أتى بهذا الإخبار ثانياً . وقوله (ليفجر أمامه) فيه قولان : (الأول) أي ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه ، وعن سعيد بن جبير : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، يقول سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله (القول الثاني) ليفجر أمامه ، أي ليكذب بما أمامه من البعث والحساب ، لأن من كذب حقاً كان كاذباً وفاجراً ، والدليل عليه قوله (يسأل أيان يوم القيامة) فالمعنى يريد الإنسان ليفجر أمامه ، أي ليكذب بيوم القيامة وهو أمامه ، فهو يسأل أيان يوم القيامة ، متى يكون ذلك تكذيباً له .

ثم قال تعالى ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ أي يسأل سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة ، في قوله أيان يوم القيامة ، ونظيره يقولون متى هذا الوعد : واعلم أن إنكار البعث تارة يتولد من الشبهة وأخرى من الشهوة ، أما من الشبهة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) وتقريره أن الإنسان هو هذا البدن فإذا مات تفرقت أجزاء البدن واختلطت تلك الأجزاء بسائر أجزاء التراب وتفرقت في مشارق الأرض ومغاربها فكان تميزها بعد ذلك عن غيرها محالا فكان البعث محالا ، واعلم أن هذه الشبهة ساقطة من وجهين (الأول) لا نسلم أن الإنسان هو هذا البدن فلم لا يجوز أن يقال إنه شيء مدبر لهذا البدن فاذا فسد هذا البدن بقي هو حياً كما كان . وحينئذ يكون الله تعالى قادراً على أن يرده إلى أي بدن شاء وأراد ، وعلى هذا القول يسقط السؤال ، وفي الآية إشارة إلى هذا لأنه أقسم بالنفس اللوامة ، ثم قال (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه وهو تصريح بالفرق بين النفس والبدن (الثاني) إن سلمنا أن الإنسان هو هذا البدن فلم قلتم إنه بعد تفريق أجزائه لا يمكن جمعه مرة أخرى وذلك لأنه تعالى عالم بجميع الجزئيات فيكون عالماً بالجزء الذي هو بدن عمرو ، وهو تعالى قادر على كل الممكنات وذلك التركيب من

فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾

الممكنات ، وإلا لما وجد أولا ، فيلزم أن يكون قادراً على تركيبها . ومتى ثبت كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات قادراً على جميع الممكنات لا يبقى فى المسألة إشكال .

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ وهو إنكار من أنكر المعاد بناء على الشهوة فهو الذى حكاه الله تعالى بقوله (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) ومعناه أن الإنسان الذى يميل طبعه إلى الاسترسال فى الشهوات والاستكثار من اللذات لا يكاد يقر بالحشر والنشر وبعث الأموات لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية فيكون أبدا منكراً لذلك قائلا على سبيل الهزؤ والسخرية أيان يوم القيامة .

ثم إنه تعالى ذكر علامات القيامة فقال ﴿ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر من علامات القيامة فى هذا الموضع أموراً ثلاثة (أولها) قوله (فاذا برق البصر) قرىء بكسر الراء وفتحها ، قال الأخفش المكسورة فى كلامهم أكثر والمفتوحة لغة أيضاً ، قال الزجاج برق بصره بكسر الراء يبرق برقاً إذا تحير ، والأصل فيه أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق ، فيؤثر ذلك فى ناظره ، ثم يستعمل ذلك فى كل حيرة ، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق ، كما قالوا قمر بصره إذا فسد من النظر إلى القمر ، ثم استعير فى الحيرة ، وكذلك بعل الرجل فى أمره ، أى تحير ودهش ، وأصله من قولهم بعلت المرأة إذا فاجأها زوجها ، فنظرت إليه وتحيرت ، وأما برق بفتح الراء ، فهو من البريق ، أى لمع من شدة شخوصه ، وقرأ أبو السمال بلق بمعنى انفتح ، وانفتح يقال بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن هذه الحالة متى تحصل ؟ فقيل عند الموت ، وقيل عند البعث وقيل عند رؤية جهنم ، فمن قال إن هذا يكون عند الموت ، قال إن البصر يبرق على معنى يشخص عند معاينة أسباب الموت ، والملائكة كما يوجد ذلك فى كل واحد إذا قرب موته ، ومن مال إلى هذا التأويل ، قال إنهم إنما سألوه عن يوم القيامة ، لكنه تعالى ذكر هذه الحادثة عند الموت والسبب فيه من وجهين : (الأول) أن المنكر لما قال (أيان يوم القيامة) على سبيل الاستهزاء فقيل له إذا برق البصر وقرب الموت زالت عنه الشكوك ، وتيقن حينئذ أن الذى كان عليه من إنكار البعث والقيامة خطأ (الثانى) أنه إذا قرب موته وبرق بصره تيقن أن إنكار البعث لأجل طلب اللذات الدنيوية كان باطلا ، وأما من قال بأن ذلك إنما يكون عند قيام القيامة ، قال لأن السؤال إنما كان عن يوم القيامة ، فوجب أن يقع الجواب بما يكون من خواصه

وآثاره، قال تعالى (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ، (وثانيها) قوله (وخسف القمر) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يحتمل أن يكون المراد من خسوف القمر ذهاب ضوئه كما نعقله من حاله إذا خسف فى الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد ذهابه بنفسه كقوله (فخسفنا به وبداره الأرض) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (وخسف القمر) على البناء للمفعول (وثالثها) قوله (وجمع الشمس والقمر) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى كيفية الجمع وجوهاً (أحدها) أنه تعالى قال (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) فإذا جاء وقت القيامة أدرك كل واحد منهما صاحبه واجتمعا (وثانيها) جمعا فى ذهاب الضوء ، فهو كما يقال الشافعى يجمع ما بين كذا وكذا فى حكم كذا (وثالثها) يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران فى النار ، وقيل يجمعان ثم يقذفان فى البحر ، فهناك نار الله الكبرى واعلم أن هذه الوجوه التى ذكرناها فى قوله ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر إنما تستقيم على مذهب من يجعل برق البصر من علامات القيامة ، فأما من يجعل برق البصر من علامات الموت قال معنى (وخسف القمر) أى ذهب ضوء البصر عند الموت ، يقال عين خاسفة ، إذا فقئت حتى غابت حدقتها فى الرأس ، وأصلها من خسفت الأرض إذا ساخت بما عليها ، وقوله (وجمع الشمس والقمر) كناية عن ذهاب الروح إلى عالم الآخرة ، كأن الآخرة كالشمس ، فإنه يظهر فيها المغيبات وتتضح فيها المبهمات ، والروح كالقمر فإنه كما أن القمر يقبل النور من الشمس ، فكذا الروح تقبل نور المعارف من عالم الآخرة ، ولا شك أن تفسير هذه الآيات بعلامات القيامة أولى من تفسيرها بعلامات الموت وأشد مطابقة لها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء إنما قال جمع ، ولم يقل جمعت لأن المراد أنه جمع بينهما فى زوال النور وذهاب الضوء ، وقال الكسائى ، المعنى جمع النوران أو الضياءان ، وقال أبو عبيدة ، القمر شارك الشمس فى الجمع ، وهو مذكر ، فلا جرم غلب جانب التذكير فى اللفظ ، قال الفراء ، قلت لمن نصر هذا القول : كيف تقولون الشمس جمع والقمر ؟ فقالوا جمعت ، فقلت ما الفرق بين الموضعين؟ فرجع عن هذا القول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ طعنت الملاحدة فى الآية ، وقالوا خسوف القمر لا يحصل حال اجتماع الشمس والقمر (والجواب) الله تعالى قادر على أن يجعل القمر منخسفاً ، سواء كانت الأرض متوسطة بينه وبين الشمس ، أو لم تكن ، والدليل عليه أن الأجسام متماثلة ، فيصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر ، والله قادر على كل الممكنات ، فوجب أن يقدر على إزالة الضوء عن القمر فى جميع الأحوال .

قوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ أى يقول هذا الإنسان المنكر للقيامة إذا

كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾

عاين هذه الأحوال أين المفر ، والقراءة المشهورة بفتح الفاء ، وقرىء أيضاً بكسر الفاء ، والمفر بفتح الفاء هو الفرار ، قال الأخفش والزجاج : المصدر من فعل يفعل مفتوح العين . وهو قول جمهور أهل اللغة ، والمعنى أين الفرار ، وقول القائل أين الفرار يحتمل معنيين (أحدهما) أنه لا يرى علامات مكنة الفرار فيقول حينئذ أين الفرار ، كما إذا أيس من وجدان زيد يقول أين زيد (والثانى) أن يكون المعنى إلى أين الفرار ، وأما المفر بكسر الفاء فهو الموضع ، فزعم بعض أهل اللغة أن المفر بفتح الفاء كما يكون اسماً للمصدر ، فقد يكون أيضاً اسماً للموضع والمفر بكسر الفاء كما يكون اسماً للموضع ، فقد يكون مصدراً ونظيره المرجع .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ وهو ردع عن طلب المفر ﴿ لا وزر ﴾ قال المبرد والزجاج أصل الوزر الجبل المنيع ، ثم يقال لكل ما التجأت إليه وتحصنت به وزر ، وأنشد المبرد قول كعب بن مالك :

الناس آلت علينا فيك ليس لنا   إلا السيوف وأطراف القنا وزر

ومعنى الآية أنه لا شيء يعتصم به من أمر الله .

ثم قال تعالى ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون المستقر بمعنى الاستقرار ، بمعنى أنهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره ، وينصبوا إلى غيره ، كما قال (إن إلى ربك الرجعى ، وإلى الله المصير . ألا إلى الله تصير الأمور ، وأن إلى ربك المنتهى) (الثانى) أن يكون المعنى إلى ربك مستقرهم ، أى موضع قرارهم من جنة أو نار ، أى مفوض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة ، ومن شاء أدخله النار .

قوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ بما قدم من عمل عمله ، وبما أخر من عمل لم يعمله ، أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه ، أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة ، فعمل بها بعده ، وعن مجاهد أنه مفسر بأول العمل وآخره ، ونظيره قوله (فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) وقال (ونكتب ما قدموا وآثارهم) واعلم أن الأظهر أن هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند العرض ، والمحاسبة ووزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت وذلك أنه إذا مات بين له مقعده من الجنة والنار ،

قوله تعالى : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال (ينبؤ الإنسان) يومئذ بأعماله ، قال بل لا يحتاج إلى أن ينبئه غير غيره ، وذلك لأن نفسه شاهدة بكونه فاعلا لتلك الأفعال ، مقدماً عليها ، ثم فى قوله (بصيرة) وجهان (الأول) قال الأخفش جعله فى نفسه بصيرة كما يقال فلان جود وكرم ، فههنا

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) ﴾

أيضاً كذلك، لأن الإنسان بضرورة عقله يعلم أن ما يقربه إلى الله ويشغله بطاعته وخدمته فهو السعادة، وما يبعده عن طاعة الله ويشغله بالدنيا ولذاتها فهو الشقاوة، فهب أنه بلسانه يروج ويزور ويرى الحق فى صورة الباطل والباطل فى صورة الحق، لكنه بعقله السليم يعلم أن الذى هو عليه فى ظاهره جيد أو ردىء (والثانى) أن المراد جوارحه تشهد عليه بما عمل فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل وهو كقوله (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) وقوله (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) وقوله (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) فأما تأنيث البصيرة، فيجوز أن يكون لأن المراد بالإنسان ههنا الجوارح كأنه قيل بل جوارح الإنسان، كأنه قيل بل جوارح الإنسان على نفس الانسان بصيرة، وقال أبو عبيدة هذه الهاء لأجل المبالغة كقوله رجل راوية وطاغية وعلامة.

واعلم أنه تعالى ذكر فى الآية الأولى أن الإنسان يخبر يوم القيامة بأعماله. ثم ذكر فى هذا الآية أنه شاهد على نفسه بما عمل، فقال الواحدى هذا يكون من الكفار فإنهم ينكرون ما عملوا فيختم الله على أفواههم وينطق جوارحهم.

قوله تعالى: ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ للمفسرين فيه أقوال: (الأول) قال الواحدى المعاذير جمع معذرة يقال معذرة ومعاذر ومعاذير: قال صاحب الكشاف جمع المعذرة معاذر والمعاذير ليس جمع معذرة، وإنما هو اسم جمع لها، ونحوه المناكير فى المنكر، والمعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه وجادل عنها وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه (القول الثانى) قال الضحاك والسدى والفراء والمبرد والزجاج المعاذير الستور واحدها معذار، قال المبرد هى لغة يمانية، قال صاحب الكشاف إن صحت هذه الرواية فذاك مجاز من حيث إن الستر يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب، والمعنى على هذا القول أنه وإن أسبل الستر ليخفى مايعمل، فإن نفسه شاهدة عليه،

قوله تعالى: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ فيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ زعم قوم من قدماء الروافض أن هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص عنه، واحتجوا عليه بأنه لامناسبة بين هذه الآية وبين ماقبلها: ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك.

واعلم أن فى بيان المناسبة وجوهاً (أولها) يحتمل أن يكون الاستعجال المنهى عنه، إنما اتفق للرسول عليه السلام عند إنزال هذه الآيات عليه، فلا جرم نهى عن ذلك الاستعجال فى هذا الوقت، وقيل له ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقى على تلميذه

شيئاً ، فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالا ، فيقول المدرس فى أثناء ذلك الدرس لا تلتفت يميناً وشمالا ثم يعود إلى الدرس ، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام فى أثنائه ، فمن لم يعرف السبب يقول إن وقوع تلك الكلمة فى أثناء ذلك الدرس غير مناسب ، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب (وثانيها) أنه تعالى نقل عن الكفار أنهم يحبون السعادة العاجلة ، وذلك هو قوله (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) ثم بين أن التعجيل مذموم مطلقاً حتى التعجيل فى أمور الدين ، فقال (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وقال فى آخر الآية (كلا بل تحبون العاجلة) ، (وثالثها) أنه تعالى قال (بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره) فهٰهنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر التعجيل فى القراءة مع جبريل ، وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان ، فكأنه قيل له إنك إذا أتيت بهذا العذر لكنك تعلم أن الحفظ لا يحصل إلا بتوفيق الله وإعانته فاترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى ، وهذا هو المراد من قوله (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) (ورابعها) كأنه تعالى قال يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم لكن لا حاجة إلى هذا فإن (الإنسان على نفسه بصيرة) وهم بقلوبهم يعلمون أن الذى هم عليه من الكفر وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث منكر باطل ، فإذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه ، ثم إن هذه المعرفة حاصلة عندهم ، فحينئذ لم يبق لهذا التعجيل فائدة ، فلا جرم قال (لا تحرك به لسانك) (وخامسها) أنه تعالى حكى عن الكافر أنه يقول أين المفر ، ثم قال تعالى (كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر) فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى إلى غيره فقيل لمحمد إنك فى طلب حفظ القرآن ، تستعين بالتكرار وهذا استعانة منك بغير الله ، فاترك هذه الطريقة ، واستعن فى هذا الأمر بالله فكأنه قيل إن الكافر يفر من الله إلى غيره ، وأما أنت فكن كالمضاد له فيجب أن تفر من غير الله إلى الله وأن تستعين فى كل الأمور بالله ، حتى يحصل لك المقصود على ما قال (إن علينا جمعه وقرآنه) وقال فى سورة أخرى (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علماً) أى لا تستعن فى طلب الحفظ بالتكرار بل اطلبه من الله تعالى (وسادسها) ما ذكره القفال وهو أن قوله (لا تحرك به لسانك) ليس خطاباً مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور فى قوله (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) فكان ذلك للانسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) فإذا أخذ فى القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به ، فانه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال ، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته ، وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية أن المراد منه أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله على سبيل التفصيل ، وفيه أشد الوعيد

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ (١٨)

فى الدنيا وأشد التهويل فى الآخرة ، ثم قال القفال فهـذا وجه حسن ليس فى العقـل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من جوز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية ، فقال إن ذلك الاستعجال إن كان بإذن الله تعالى فكيف نهاه عنه وإن كان لا بإذن الله تعالى فقد صدر الذنب عنه (الجواب) لعـل ذلك الاستعجال كان مأذوناً فيه إلى وقت النهى عنه ، ولا يبعـد أن يكون الشىء مأذوناً فيه فى وقت ثم يصير منهياً عنه فى وقت آخر ، ولهذا السبب قلنا يجوز النسخ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى سـعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم يشتد عليـه حفظ التنزيل وكان إذا نزل عليه الوحى يحرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جـبريل مخافة أن لا يحفظ ، فأنزل تعالى (لا تحرك به لسانك) أى بالوحى والتنزيل والقرآن ، وإنمـا جاز هذا الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه ، كما أضمر فى قوله (إنا أنزلناه فى ليـلة القدر) ونظير قوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) وقوله (لتعجل به) أى لتعجل بأخذه .

قوله تعالى : ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كلمة على للوجوب فقوله إن علينا يدل على أن ذلك كالواجب على الله تعالى ، أما على مذهبنا فذلك الوجوب بحكم الوعد ، وأما على قول المعتزلة فلأن المقصود من البعثة لا يتم إلا إذا كان الوحى محفوظاً مبرأ عن النسيان ، فكان ذلك واجباً نظراً إلى الحـكمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إن علينـا جمعه) معناه علينا جمعه فى صـدرك وحفظك ، وقوله (وقرآنه) فيه وجهان (أحدهما) أن المراد من القرآن القراءة ، وعلى هـذا التقدير ففيه احتمالان (أحدهما) أن يكون المراد جبريل عليه السلام ، سيعيده عليك حتى تحفظه (والثانى) أن يكون المراد إنا سنقرئك يا محمد إلى أن تصير بحيث لا تنساه ، وهو المراد من قوله (سنقرئك فلا تنسى) فعلى هذا الوجه الأول القارىء جبريل عليه السلام ، وعلى الوجه الثانى القارىء محمد ﷺ (والوجه الثانى) أن يكون المراد من القرآن الجمع والتأليف ، من قولهم : ما قرأت الناقة سلاقط ، أى ما جمعت ، وبنت عمرو بن كلثوم لم تقرأ جنيناً ، وقد ذكرنا ذلك عند تفسير القرء . فإن قيـل فعلى هذا الوجه يكون الجمع والقرآن واحداً فيلزم التـكرار ، قلنا يحتمل أن يكون المراد من الجمع جمعه فى نفسه ووجوده الخارجى ، ومن القرآن جمعه فى ذهنه وحفظه ، وحينئذ يندفع التـكرار .

قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته ، وهذا يدل على الشرف العظيم لجبريل عليه السلام ، ونظيره فى حق محمد عليه الصلاة والسلام (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ابن عباس : معناه فإذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه ، وفيه وجهان (الأول) قال قتادة : فاتبع حلاله وحرامه (والثانى) فاتبع قراءته ، أى لا ينبغى أن تكون قراءتك مقارنة لقراءة جبريل ، لكن يجب أن تسكت حتى يتم جبريل عليه السلام القراءة ، فإذا سكت جبريل فخذ أنت فى القراءة ، وهذا الوجه أولى لأنه عليه السلام أمر أن يدع القراءة ويستمع من جبريل عليه السلام ، حتى إذا فرغ جبريل قرأه ، وليس هذا موضع الأمر باتباع ما فيه من الحلال والحرام . قال ابن عباس : فكان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بعد هذه الآية أطرق واستمع فإذا ذهب قرأه .

قوله تعالى : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية تدل على أنه عليه السلام كان يقرأ مع قراءة جبريل عليه السلام وكان يسأل فى أثناء قراءته مشكلاته ومعانيه لغاية حرصه على العلم ، فنهى النبي عليه السلام عن الأمرين جميعاً ، أما عن القراءة مع قراءة جبريل فبقوله (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) وأما عن إلقاء الأسئلة فى البيان فبقوله (ثم إن علينا بيانه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من جوز تأخير البيان عن وقت الخطاب بهذه الآية . وأجاب أبو الحسين عنه من وجهين (الأول) أن ظاهر الآية يقتضى وجوب تأخير البيان عن وقت الخطاب وأنتم لاتقولون به (الثانى) أن عندنا الواجب أن يقرن باللفظ إشعاراً بأنه ليس المراد من اللفظ مايقتضيه ظاهره ، فأما البيان التفصيلى فيجوز تأخيره فتحمل الآية على تأخير البيان التفصيلى ، وذكر القفال (وجهاً ثالثاً) وهو أن قوله (ثم إن علينا بيانه) أى ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه ، ونظيره قوله تعالى (فك رقبة ـ إلى قوله ـ ثم كان من الذين آمنوا) والجواب عن (الأول) أن اللفظ لا يقتضى وجوب تأخير البيان بل يقتضى تأخير وجوب البيان ، وعندنا الأمر كذلك لأن وجوب البيان لا يتحقق إلا عند الحاجة (وعن الثانى) أن كلمة ثم دخلت مطلق البيان فيتناول البيان المجمل والمفصل ، وأما سؤال القفال فضعيف أيضاً لأنه ترك للظاهر من غير دليل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ثم إنا علينا بيانه) يدل على أن بيان المجمل واجب على الله تعالى أما عندنا فبالوعد والتفضل . وأما عند المعتزلة فبالحكمة .

قوله تعالى : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (كلا) ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وحث على الأناة والتؤدة ، وقد بالغ فى ذلك باتباعه قوله (بل تحبون العاجلة) كأنه قال بل أنتم يابنى آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون فى كل شىء ، ومن ثم تحبون العاجلة

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

وتذرون الآخرة ، وقال سائر المفسرين (كلا) معناه حقاً أى حقاً تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ، والمعنى أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها ويتركون الآخرة ويعرضون عنها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء تحبون وتذرون بالتاء والياء وفيه وجهان (الأول) قال الفراء القرآن إذا نزل تعريفاً لحال قوم ، فتارة ينزل على سبيل المخاطبة لهم . وتارة ينزل على سبيل المغايبة ، كقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) (الثانى) قال أبو على الفارسى : الياء على ماتقدم من ذكر الإنسان فى قوله (أيحسب الإنسان) والمراد منه الكثرة ، كقوله (إن الإنسان خلق هلوعاً) والمعنى أنهم يحبون ويذرون ، والتاء على قل لهم ، بل تحبون وتذرون .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال الليث : نضر اللون والشجر والورق ينضر نضرة ، والنضرة النعمة ، والناضر الناعم ، والنضر الحسن من كل شىء ، ومنه يقال للون إذا كان مشرقاً : ناضر ، فيقال أخضر ناضر ، وكذلك فى جميع الألوان ، ومعناه الذى يكون له برق ، وكذلك يقال : شجر ناضر ، وروض ناضر . ومنه قوله عليه السلام « نضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها » الحديث . أكثر الرواة رواه بالتخفيف ، وروى عكرمة عن الأصمعى : فيه التشديد ، وألفاظ المفسرين مختلفة فى تفسير الناضر ، ومعناها واحد قالوا : مسرورة ، ناعمة ، مضيئة ، مسفرة ، مشرقة بهجة . وقال الزجاج : نضرت بنعيم الجنة ، كما قال (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) .

قوله تعالى : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ .

اعلم أن جمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية فى إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة . أما المعتزلة فلهم ههنا مقامان (أحدهما) بيان أن ظاهره لا يدل على رؤية الله تعالى (والثانى) بيان التأويل .

﴿ أما المقام الأول ﴾ فقالوا النظر المقرون بحرف إلى ليس اسماً للرؤية ، بل لمقدمة الرؤية وهى تقليب الحدقة نحو المرئى التماس لرؤيته ، ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة ، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع ، فكما أن نظر القلب مقدمة للمعرفة ، والإصغاء مقدمة للسماع ، فكذا نظر العين مقدمة للرؤية ، قالوا والذى يدل على أن النظر ليس اسماً للرؤية وجوه (الأول) قوله تعالى (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) أثبت النظر حال عدم الرؤية ، فدل على أن النظر غير الرؤية (والثانى) أن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية ، يقال . نظر إليه نظراً شزراً ، ونظر غضبان ، ونظر راض ، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال ، ولا توصف الرؤية بشىء من ذلك ، فلا يقال رآه شزراً ، ورآه رؤية غضبان ، أو رؤية راض (الثالث) يقال انظر إليه حتى تراه ، ونظرت إليه فرأيته ، وهذا يفيد كون الرؤية

غاية للنظر ، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية (الرابع) يقال دور فلان متناظرة ، أى متقابلة ، فمسمى النظر حاصل ههنا ، ومسمى الرؤية غير حاصل (الخامس) قول الشاعر :

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

أثبت النظر المقرون بحرف إلى مع أن الرؤية ما كانت حاصلة (السادس) احتج أبو على الفارسى على أن النظر ليس عبارة عن الرؤية ، التى هى إدراك البصر . بل هو عبارة عن تقليب الحدقة نحو الجهة التى فيها الشىء الذى يراد رؤيته ، لقول الشاعر :

فيا مى هل يجزى بكائى بمثله مراراً وأنفاسى إليك الزوافر

وانى متى أشرف على الجانب الذى به أنت من بين الجوانب ناظرا

قال : فلو كان النظر عبارة عن الرؤية لما طلب الجزاء عليه ، لأن المحب لم يطلب الثواب على رؤية المحبوب ، فإن ذلك من أعظم مطالبه ، قال : ويدل على ذلك أيضاً قول الآخر :

ونظرة ذى شجن وامق إذا ما الركائب جاوزن ميلا

والمراد منه تقليب الحدقة نحو الجانب الذى فيه المحبوب ، فعلمنا بهذه الوجوه أن النظر المقرون بحرف إلى ليس اسما للرؤية (السابع) أن قوله (إلى ربها ناظرة) معناه أنها تنظر إلى ربها خاصة ولا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول ، ألا ترى إلى قوله (إلى ربك يومئذ المستقر ، إلى ربك يومئذ المساق ، ألا إلى الله تصير الأمور ، وإليه ترجعون ، وإلى الله المصير ، عليه توكلت وإليه أنيب) كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ، ولا تدخل تحت العدد فى موقف القيامة ، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون (الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله ، ودل العقل على أنهم يرون غير الله ، علمنا أن المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية (الثامن) قال تعالى (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) ولو قال لايراهم كفى ، فلما نفى النظر ، ولم ينف الرؤية دل على المغايرة ، فثبت بهذه الوجوه ، أن النظر المذكور فى هذه الآية ليس هو الرؤية .

﴿ المقام الثانى ﴾ فى بيان التأويل المفصل ، وهو من وجهين (الأول) أن يكون الناظر بمعنى المنتظر ، أى أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله ، وهو كقول القائل ، إنما أنظر إلى فلان فى حاجتى والمراد أنتظر نجاحها من جهته ، وقال تعالى ، (فناظرة بم يرجع المرسلون) وقال (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) لا يقال النظر المقرون بحرف إلى غير مستعمل فى معنى الانتظار ، ولأن الانتظار غم وألم ، وهو لا يليق بأهل السعادة يوم القيامة ، لأنا نقول (الجواب) عن الأول من وجهين (الأول) النظر المقرون بحرف إلى قد يستعمل بمعنى الانتظار ، والتوقع والدليل عليه أنه يقال : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى ، والمراد منه التوقع والرجاء ، وقال الشاعر :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعما

وتحقيق الكلام فيه أن قولهم فى الانتظار نظرت بغير صلة ، فإنما ذلك فى الانتظار لمجىء الإنسان بنفسه ، فأما إذا كان منتظراً لرفده ومعونته ، فقد يقال فيه نظرت إليه كقول الرجل ، وإنما نظرى إلى الله ثم إليك ، وقد يقول ذلك من لا يبصر ، ويقول الأعمى فى مثل هذا المعنى عينى شاخصة إليك ، ثم إن سلمنا ذلك لكن لا نسلم أن المراد من إلى ههنا حرف التعدى . بل هو واحد الآلاء ، والمعنى : وجوه يومئذ ناضرة نعمة ربها منتظرة .

﴿ وأما السؤال الثانى ﴾ وهو أن الانتظار غم وألم ، فجوابه أن المنتظر . إذا كان فيما ينتظره على يقين من الوصول إليه ، فإنه يكون فى أعظم اللذات ،

﴿ التأويل الثانى ﴾ أن يضمر المضاف ، والمعنى إلى ثواب ربها ناظرة ، قالوا وإنما صرنا إلى هذا التأويل ، لأنه لما دلت الدلائل السمعية والعقلية على أنه تعالى تمتنع رؤيته وجب المصير إلى التأويل ، ولقائل أن يقول : فهذه الآية تدل أيضاً على أن النظر ليس عبارة عن تقليب الحدقة ، لأنه تعالى قال لا ينظر إليهم وليس المراد أنه تعالى يقلب الحدقة إلى جهتهم فإن قلتم المراد أنه لا ينظر إليهم نظر الرحمة كان ذلك جوابنا عما قالوه .

﴿ التأويل الثالث ﴾ أن يكون معنى (إلى ربها ناظرة) أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله ، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام « اعبد الله كأنك تراه » فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه (الجواب) قوله ليس النظر عبارة عن الرؤية ، قلنا ههنا مقامان :

﴿ الأول ﴾ أن نقيم الدلالة على أن النظر هو الرؤية من وجهين : (الأول) ما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام وهو قوله (أنظر إليك) فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئى ، لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام أثبت لله تعالى وجهة ومكاناً وذلك محال (الثانى) أنه جعل النظر أمراً مرتباً على الإرادة فيكون النظر متأخراً عن الإرادة ، وتقليب الحدقة غير متأخر عن الإرادة ، فوجب أن يكون النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئى .

﴿ المقام الثانى ﴾ وهو الأقرب إلى الصواب ، سلمنا أن النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئى التماساً لرؤيته ، لكنا نقول لما تعذر حمله على حقيقته وجب حمله على مسببه وهو الرؤية ، إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار ، لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ولا تعلق بينه وبين الانتظار ، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار .

أما قوله : النظر جاء بمعنى الانتظار ، قلنا لنا فى الجواب مقامان :

﴿ الأول ﴾ أن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير فى القرآن ، ولكنه لم يقرن البتة بحرف إلى كقوله تعالى (انظرونا نقتبس من نوركم) وقوله (هل ينظرون إلا تأويله) (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) والذى ندعيه أن النظر المقرون بحرف إلى المعدى إلى الوجوه ليس إلا بمعنى الرؤية

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

أو بالمعنى الذى يستعقب الرؤية ظاهر ، فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعاً للاشتراك .

وأما قول الشاعر :

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

قلنا هذا الشعر موضوع والرواية الصحيحة :

وجوه ناظرات يوم بكر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

والمراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب ، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة ، فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء ، وأما قول الشاعر :

وإذا نظرت إليك من ملك

(فالجواب) أن قوله : وإذا نظرت إليك ، لا يمكن أن يكون المراد منه الانتظار ، لأن مجرد الانتظار لا يستعقب العطية بل المراد من قوله : وإذا نظرت إليك ، وإذا سألتك لأن النظر إلى الإنسان مقدمة المكالمة فجاز التعبير عنه به ، وقوله كلمة إلى ههنا ليس المراد منه حرف التعدى بل واحد الآلاء ، قلنا إن إلى على هذا القول تكون اسما للماهية التى يصدق عليه أنها نعمة ، فعلى هذا يكفى فى تحقق مسمى هذه اللفظة أى جزء فرض من أجزاء النعمة ، وإن كان فى غاية القلة والحقارة ، وأهل الثواب يكونون فى جميع مواقف القيامة فى النعم العظيمة المتكاملة ، ومن كان حاله كذلك كيف يمكن أن يبشر بأنه يكون فى توقع الشىء الذى ينطلق عليه اسم النعمة ، ومثال هذا أن يبشر سلطان الأرض بأنه سيصير حالك فى العظمة والقوة بعد سنة ، بحيث تكون متوقعاً لحصول اللقمة الواحدة من الخبز والقطرة الواحدة من الماء ، وكما أن ذلك فاسد من القول فكذا هذا .

﴿ المقام الثانى ﴾ هب أن النظر المعدى بحرف إلى المقرون بالوجوه جاء فى اللغة بمعنى الانتظار لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه ، لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة فى الدنيا ، فلا بد وأن يحصل فى الآخرة شىء أزيد منه حتى يحسن ذكره فى معرض الترغيب فى الآخرة ، ولا يجوز أن يكون ذلك هو قرب الحصول ، لأن ذلك معلوم بالعقل فبطل ما ذكروه من التأويل .

﴿ وأما التأويل الثانى ﴾ وهو أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة ، فهذا ترك للظاهر ، وقوله إنما صرنا إليه لقيام الدلائل العقلية والنقلية على أن الله لا يرى ، قلنا بينا فى الكتب العقلية ضعف تلك الوجوه ، فلا حاجة ههنا إلى ذكرها والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ الباسر : الشديد العبوس والباسل أشد منه ، ولكنه غلب فى الشجاع إذا اشتد كلوحه ، والمعنى أنها عابسة كالحة قد

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾

أظلمت ألوانها وعدمت آثار السرور والنعمة منها ، لما أدركها من الشقاء واليأس من رحمة الله ، ولما سودها الله حين ميز الله أهل الجنة والنار ، وقد تقدم تفسير البسور عند قوله (عبس وبسر) وإنما كانت بهذه الصفة ، لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل ، وهو قوله (تظن أن يفعل بها فاقرة) والظن ههنا بمعنى اليقين ، هكذا قاله المفسرون ، وعندى أن الظن إنما ذكر ههنا على سبيل التهكم كأنه قيل إذا شاهدوا تلك الأحوال ، حصل فيهم ظن أن القيامة حق ، وأما الفاقرة ، فقال أبو عبيدة : الفاقرة الداهية ، وهو اسم للوسم الذى يفقر به على الأنف ، قال الأصمعى : الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم ، أو قريب منه ، ثم يجعل فيه خشبة يجر البعير بها ، ومنه قيل عملت به الفاقرة ، قال المبرد : الفاقرة داهية تكسر الظهر ، وأصلها من الفقرة والفقارة كأن الفاقرة داهية تكسر فقار الظهر ، وقال ابن قتيبة : يقال فقرت الرجل ، كما يقال رأسته وبطنته فهو مفقور ، واعلم أن من المفسرين من فسر الفاقرة بأنواع العذاب فى النار ، وفسرها الكلبي فقال : الفاقرة هى أن تحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ قال الزجاج : كلا ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة ، كأنه قيل لما عرفتم صفة سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء فى الآخرة ، وعلمتم أنه لا نسبة لها إلى الدنيا ، فارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة ، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذى عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنتقلون إلى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين ، وقال آخرون (كلا) أى حقاً إذا بلغت التراقى كان كذا وكذا ، والمقصود أنه لما بين تعظيم أحوال الآخرة بين أن الدنيا لابد فيها من الانتهاء والنفاد والوصول إلى تجرع مرارة الموت . وقال مقاتل (كلا) أى لا يؤمن الكافر بما ذكر من أمر القيامة ، ولكنه لا يمكنه أن يدفع أنه لابد من الموت ، ومن تجرع آلامها ، وتحمل آفاتها .

ثم إنه تعالى وصف تلك الحالة التى تفارق الروح فيها الجسد فقال ﴿ إذا بلغت التراقى ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد إذا بلغت النفس أو الروح أخبر عما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب بذلك ، كقوله (إنا أنزلناه) والتراقى جمع ترقوة . وهى عظم وصل بين ثغرة النحر ، والعاتق من الجانبين .

واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقى عن القرب من الموت ، ومنه قول دريد بن الصمة :

ورب عظيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقى

ونظيره قوله تعالى (حتى إذا بلغت الحلقوم)

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض الطاعنين : إن النفس إنما تصل إلى التراقى بعد مفارقتها عن القلب

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾

ومتى فارقت النفس القلب حصل الموت لامحالة ، والآية تدل على أن عند بلوغها التراقى ، تبقى الحياة حتى يقال فيه من راق ، وحتى تلتف الساق بالساق (والجواب) المراد من قوله (حتى إذا بلغت التراقى) أى إذا حصل القرب من تلك الحالة .

قوله تعالى : ﴿ وقيل من راق ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى راق وجهان (الأول) أن يكون من الرقية يقال رقاه يرقيه رقية إذا عوذه بما يشفيه ، كما يقال بسم الله أرقيك ، وقائل هذا القول على هذا الوجه ، هم الذين يكونون حول الإنسان المشرف على الموت ، ثم هذا الاستفهام ، يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طبيباً يشفيه ، وراقياً يرقيه ، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، كما يقول القائل عند اليأس من الذى يقدر أن يرقى هذا الإنسان المشرف على الموت (الوجه الثانى) أن يكون قوله (من راق) من رقى يرقى رقياً ، ومنه قوله تعالى (ولن نؤمن لرقيك) وعلى هذا الوجه يكون قائل هذا القول هم الملائكة . قال ابن عباس إن الملائكة يكرهون القرب من الكافر ، فيقول ملك الموت من يرقى بهذا الكافر ، وقال الكلبى يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة ، وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت ، فإذا بلغت نفس العبد التراقى نظر بعضهم إلى بعض ، أيهم يرقى بروحه إلى السماء فهو (من راق)

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى إن إظهار النون عند حروف الفم لحسن ، فلا يجوز إظهار نون من فى قوله (من راق) وروى حفص عن عاصم إظهار النون فى قوله (من راق ، واللام بل ران) قال أبو على الفارسى ، ولا أعرف وجه ذلك ، قال الواحدى ، والوجه أن يقال قصد الوقف على من وبل ، فأظهرها ثم ابتدأ بما بعدهما ، وهذا غير مرضى من القراءة .

قوله تعالى : ﴿ وظن أنه الفراق ﴾ قال المفسرون : المراد أنه أيقن بمفارقته الدنيا ، ولعله إنما سمى اليقين ههنا بالظن ، لأن الإنسان مادام يبقى روحه متعلقاً ببدنه ، فإنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال (كلا بل تحبون العاجلة) ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة ، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم .

واعلم أن الآية دالة على أن الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن ، لأنه تعالى سمى الموت فراقاً ، والفرق إنما يكون لو كانت الروح باقية ، فإن الفراق والوصال صفة ، والصفة تستدعى وجود الموصوف .

ثم قال تعالى ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ الالتفاف هو الاجتماع ، كقوله تعالى (جئنا بكم

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾

لفيفاً) وفى الساق قولان (القول الأول) أنه الأمر الشديد ، قال أهل المعانى : لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمر لها عن ساقه ، فقيل للأمر الشديد ساق ، وتقول العرب : قامت الحرب على ساق ، أى اشتدت ، قال الجعدى :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ثم قال : والمراد بقوله (التفت الساق بالساق) أى التفت شدة مفارقة الدنيا ولذاتها وشدة الذهاب ، أو التفت شدة ترك الأهل ، وترك الولد ، وترك المال ، وترك الجاه ، وشدة شماتة الأعداء ، وغم الأولياء ، وبالجملة فالشدائد هناك كثيرة ، كشدة الذهاب إلى الآخرة والقدوم على الله ، أو التفت شدة ترك الأحباب والألياء ، وشدة الذهاب إلى دار الغربة (والقول الثانى) أن المراد من الساق هذا العضو المخصوص ، ثم ذكروا على هذا القول وجوهاً (أحدها) قال الشعبى وقتادة : هما ساقاه عند الموت أما رايته فى النزع كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى (والثانى) قال الحسن وسعيد بن المسيب : هما ساقاه إذا التفتا فى الكفن (والثالث) أنه إذا مات يبست ساقاه ، والتصقت إحداهما بالأخرى .

ثم قال تعالى ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ المساق مصدر من ساق يسوق ، كالمقال من قال يقول ، ثم فيه وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أن المسوق إليه هو الرب (والثانى) أن يكون المراد أن السائق فى ذلك اليوم هو الرب ، أى سوق هؤلاء مفوض إليه .

قوله تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه ، وفيما يتعلق بدنياه . أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ما صدق بالدين ، ولكنه كذب به ، وأما ما يتعلق بفروع الدين ، فهو أنه ما صلى ولكنه تولى وأعرض وأما ما يتعلق بدنياه ، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ، ويتبختر ، ويختال فى مشيته ، واعلم أن الآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقهما بترك الإيمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فلا صدق) حكاية عمن ؟ فيه قولان (الأول) أنه كناية عن الإنسان فى قوله (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) ألا ترى إلى قوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) وهو معطوف على قوله (يسأل أيان يوم القيامة) (والقول الثانى) أن الآية نزلت فى أبى جهل.

أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في يتمطى قولان (أحدهما) أن أصله يتمطط أى يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه ، فقلبت الطاء فيه ياء ، كما قيل في تقضى أصله تقضض (والثانى) من المطا وهو الظهر لأنه يلويه ، وفي الحديث « إذا مشت أمتى المطيطى » أى مشية المتبختر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال أهل العربية : (لا)ههنا في موضع لم فقوله (فلا صدق ولا صلى) أى لم يصدق ولم يصل ، وهو كقوله (فلا اقتحم العقبة) أى لم يقتحم ، وكذلك ما روى في الحديث « أرأيت من لا أكل ولا شرب ، ولا استهل » قال الكسائى لم أر العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها حتى تتبعها بأخرى ، إما مصرحاً أو مقدراً ، أما المصرح فلا يقولون : لا عبد الله خارج حتى يقولوا ، ولا فلان ، ولا يقولون : مررت برجل لا يحسن حتى يقولوا ، ولا يجمل ، وأما المقدر فهو كقوله (فلا اقتحم العقبة) ثم اعترض الكلام ، فقال (وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام) وكان التقدير لا فك رقبة ، ولا أطعم مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة ، ومنهم من قال التقدير في قوله (فلا اقتحم) أى أفلا اقتحم ، وهلا اقتحم .

قوله تعالى : ﴿ أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ﴾ قال قتادة والكلبي ومقاتل أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبى جهل . ثم قال (أولى لك فأولى) توعده ، فقال أبو جهل بأى شيء تهددنى ؟ لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئاً ، وإنى لأعز أهل هذا الوادى ، ثم انسل ذاهباً ، فأنزل الله تعالى كما قال له الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى قوله (أولى لك) بمعنى ويل لك ، وهو دعاء عليه ، بأن يليه ما يكرهه ، قال القاضى : المعنى بعد ذلك ، فبعداً [لك] في أمر دنياك ، وبعداً لك ، في أمر أخراك ، وقال آخرون المعنى الويل لك مرة بعد ذلك ، وقال القفال : هذا يحتمل وجوها (أحدها) أنه وعيد مبتدأ من الله للكافرين (والثانى) أنه شيء قاله النبى صلى الله عليه وسلم لعدوه فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك (والثالث) أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه ، بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) فقل له يا محمد (أولى لك فأولى) أى احذر ، فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه .

قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أى مهملا لا يؤمر ، ولا ينهى ، ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب بعمله في الآخرة ، والسدى في اللغة المهمل يقال أسديت إبلى اسداء أهملتها .

واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة ، قوله (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) أعاد في آخر السورة ذلك ، وذكر في صحة البعث والقيامة دليلين (الأول) قوله (أيحسب الإنسان

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

أن يترك سدى) ونظيره قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) وقوله (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهى عن المفاسد يقتضى كونه تعالى راضياً بقبائح الأفعال ، وذلك لا يليق بحكمته ، فإذاً لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة .

﴿ الدليل الثانى ﴾ على صحة القول بالحشر الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة ، وهو المراد قوله تعالى : ﴿ألم يك نطفة من منى يمنى ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ النطفة هى الماء القليل وجمعها نطاف ونطف ، يقول ألم يك ماء قليلا فى صلب الرجل وترائب المرأة ؟ وقوله (من منى يمنى) أى يصب فى الرحم ، وذكرنا الكلام فى يمنى عند قوله (من نطفة إذا تمنى) وقوله (أفرأيتم ما تمنون) فإن قيل ما الفائدة فى يمنى فى قوله (من منى يمنى) ؟ قلنا فيه إشارة إلى حقارة حاله ، كأنه قيل إنه مخلوق من المنى الذى جرى على مخرج النجاسة ، فلا يليق بمثل هذا الشىء أن يتمرد عن طاعة الله تعالى إلا أنه عبر عن هذا المعنى ، على سبيل الرمز كما فى قوله تعالى فى عيسى ومريم (كانا يأكلان الطعام) والمراد منه قضاء الحاجة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى يمنى فى هذه السورة قراءتان التاء والياء ، فالتاء للنطفة ، على تقدير ألم يك نطفة تمنى من المنى ، والياء للمنى من منى يمنى ، أى يقدر خلق الإنسان منه .

قوله تعالى : ﴿ ثم كان علقة ﴾ أى الإنسان كان علقة بعد النطفة .

أما قوله تعالى ﴿ فخلق فسوى ﴾ ففيه وجهان (الأول) فخلق فقدر فسوى فعدل (الثانى) فخلق ، أى فنفخ فيه الروح ، فسوى فكمل أعضاءه ، وهو قول ابن عباس ومقاتل .

ثم قال تعالى ﴿ فجعل منه ﴾ أى من الإنسان ﴿ الزوجين ﴾ يعنى الصنفين .

ثم فسرهما فقال ﴿ الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ والمعنى أليس ذلك الذى أنشأ هذه الأشياء بقادر على الإعادة ، روى أنه ﷺ كان إذا قراها قال : سبحانك بلى والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم .

٧٥ ــ سورة القيامة

(مكية وهى أربعون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ ٧٥ القيامة

وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ٧٥ القيامة

أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ٧٥ القيامة

﴿ سورة القيامة مكية وآياتها أربعون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (لا أقسم بيوم القيامة) إدخال لا النافية على فعل القسم شائع وفائدتها
توكيد القسم قالوا إنها صلة مثلها فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب وقيل هى للنفى لكن لا لنفى
نفس الإقسام بل لنفى ماينبىء هو عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه كأن معنى لاأقسم بكذا لا أعظمه
بإقسامى به حق إعظامه فإنه حقيق بأكثر من ذلك وأكثر وأما ماقيل من أن المعنى نفى الإقسام لوضوح
الأمر فقد عرفت مافيه فى قوله تعالى فلاأقسم بمواقع النجوم وقيل إن لا نفى ورد لكلام معهود قبل
القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل لا أى ليس الأمر كذلك ثم قيل أقسم بيوم القيامة كقولك لا والله
إن البعث حق وأياً ما كان ففى الإقسام على تحقق البعث بيوم القيامة من الجزالة ما لامزيد عليه وقد
٢ مر تفصيله فى سورة يس وسورة الزخرف (ولا أقسم بالنفس اللوامة) أى بالنفس المتقية التى تلوم
النفوس يومئذ على تقصيرهن فى التقوى ففيه طرف من البراعة التى فى القسم السابق أو بالنفس التى
تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الطاعات أو بالنفس المطمئنة اللائمة للنفس الأمارة وقيل بالجنس لما
روى أنه عليه الصلاة والسلام قال ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة إن عملت
خيراً قالت كيف لم أزدد وإن عملت شراً قالت ليتنى كنت قصرت ولا يخفى ضعفه فإن هذا القدر من
اللوم لايكون مداراً للإعظام بالإقسام وإن صدر عن النفس المؤمنة المسيئة فكيف من الكافرة المندرجة
تحت الجنس وقيل بنفس آدم عليه السلام فإنها لاتزال تتلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة وجواب
٣ القسم مادل عليه قوله تعالى (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) وهو ليبعثن والمراد بالإنسان
الجنس والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وأن مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف
أى أيحسب أن الشأن لن نجمع عظامه فإن ذلك حسبان باطل فإنا نجمعها بعد تشتتها ورجوعها رميما

بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ٧٥ القيامة

بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ ٧٥ القيامة

يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ٧٥ القيامة

فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ ٧٥ القيامة

وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ ٧٥ القيامة

وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ٧٥ القيامة

يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ٧٥ القيامة

ورفاتاً مختلطاً بالتراب وبعد ماسفتها الرياح وطيرتها فى أقطار الأرض وألقتها فى البحار وقيل إن عدى بن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق وهمااللذان كان النبىعليه الصلاةوالسلام يقولفيهما اللهم اكفنى جارىالسوء قالرسول اللهصلى الله عليه وسلم يامحمد حدثنى عن يوم القيامة متى يكونوكيف أمره فأخبرهرسول اللهصلى اللهعليه وسلمفقال لوعاينت ذلك اليوم لم أصدقك أو يجمع الله هذه العظام
٤ (بلى) أى نجمعها حال كوننا (قادرين على أن نسوى بنانه) أى نجمع سلامياته ونضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام أو على أن نسوى أصابعه التى هى أطرافه وآخر
٥ مايتم به خلقه وقرىء قادرون (بل يريدالإنسان ليفجر أمامه) عطفعلى أيحسب إما على أنه استفهام مثله أضربعن التوبيخبذلك إلىالتوبيخ بهذا أو على أنه إيجاب انتقل إليه عن الاستفهام أى بل يريد
٦ ليدوم على فجورهفيما بينيديه منالأوقات ومايستقبله منالزمان لايرعوىعنه (يسأل أيانيوم القيامة)
٧ أى متى يكون استبعادا أو استهزاء (فإذا برق البصر) أىتحير فزعامن برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره وقرىء بفتح الراء وهى لغة أو من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصة وقرىء بلق أى
٨،٩ انفتح وانفرج (وخسف القمر) أى ذهب ضوؤه وقرىء على البناء للمفعول (وجمع الشمس والقمر) بان يطلعهما الله تعالى من المغرب وقيل جمعا فى ذهاب الضوء وقيل يجمعان أسودين مكورين كأنهما
١٠ ثوران عقيران فى النار وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف (يقول الإنسان يومئذ) أىيوم إذ تقع هذه الأمور (أين المفر) أى الفرار يأساً منه وقرىء بالكسر أى موضع الفرار وقد جوز أن يكون هو أيضاً مصدرا كالمرجع.

كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ ٧٥ القيامة

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ٧٥ القيامة

يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ٧٥ القيامة

بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ٧٥ القيامة

وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ٧٥ القيامة

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ٧٥ القيامة

---

١١ (كلا) ردع من طلب المفر وتمنيه (لاوزر) لاملجأ مستعار من الجبل وقيل كل ماالتجأت إليه وتخلصت
١٢ به فهو وزرك (إلى ربك يومئذ المستقر) أى إليه وحده استقرار العباد أو إلى حكمه استقرار أمرهم
١٣ أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار (ينبأ الإنسان يومئذ) أى يخبر
* كل امرىء براً كان أو فاجراً عند وزن الأعمال (بما قدم) أى عمل من عمل خيراً كان أو شراً فيثاب
* بالأول ويعاقب بالثانى (وأخر) أى لم يعمل خيراً كان أو شرا فيعاقب بالأول ويثاب بالثانى أو بما قدم من حسنة أو سيئة وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده أو بما قدم من مال تصدق به
١٤ فى حياته وبما أخر تخلفه أو وقفه أو أوصى به أو بأول عمله وآخره (بل الإنسان على نفسه بصيرة) أى حجة بينة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الأعمال السيئة كما يعرب عنه كلمة على وما سيأتى من الجملة الحالية وصفت بالبصارة مجازا كما وصفت الآيات بالأبصار فى قوله تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة أو عين بصيرة أو التاء للمبالغة ومعنى بل الترقى أى ينبأ الإنسان بأعماله بل هو يومئذ عالم بتفاصيل
١٥ أحواله شاهد على نفسه لأن جوارحه تنطق بذلك وقوله تعالى (ولو ألقى معاذيره) أى ولو جاء بكل معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه حال من المستكن فى بصيرة أو من مرفوع ينبأ أى هو بصيرة على نفسه تشهد عليه جوارحه وتقبل شهادتها ولو اعتذر بكل معذرة أو ينبأ بأعماله ولو اعتذر الخ والمعاذير اسم جمع للمعذرة كالمناكير اسم جمع للنكر وقيل هو جمع معذار وهو الستر أى ولو أرخى ستوره . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحى نازع جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن ينفلت منه فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يستنصت له
١٦ ملقياً إليه قلبه وسمعه حتى يقضى إليه الوحى ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه فقيل (لاتحرك به)
* أى بالقرآن (لسانك) عند إلقاء الوحى (لتعجل به) أى لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾	٧٥ القيامة
فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾	٧٥ القيامة
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾	٧٥ القيامة
كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾	٧٥ القيامة
وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾	٧٥ القيامة
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾	٧٥ القيامة
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾	٧٥ القيامة

١٧ (إن علينا جمعه) فى صدرك بحيث لايذهب عليك شيء من معانيه (وقرآنه) أى إثبات قراءته فى لسانك
١٨ (فإذا قرأناه) أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة
١٩ فى إيجاب التأنى (فاتبع قرآنه) فكن مقفياً له ولا تراسله (ثم إن علينا بيانه) أى بيان ما أشكل عليك
٢٠ من معانيه وأحكامه (كلا) ردع له عليه الصلاة والسلام عن عادة العجلة وترغيب له فى الأناة وأكد
٢١ ذلك بقوله تعالى (بل تحبون العاجلة) (وتذرون الآخرة) على تعميم الخطاب للكل أى بل أنتم يا بنى
آدم لما خلقتم من عجل وجبلتم عليه تعجلون فى كل شيء ولذلك تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقيل
كلا ردع للإنسان عن الاغترار بالعاجل فيكون جمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى الجنس ويؤيده
٢٢ قراءة الفعلين على صيغة الغيبة (وجوه يومئذ ناضرة) أى وجوه كثيرة وهى وجوه المؤمنين المخلصين
يوم إذ تقوم القيامة بهية متهللة يشاهد عليها نضرة النعيم على أن وجوه مبتدأ وناضرة خبره ويومئذ
٢٣ منصوب بناضرة وناظرة فى قوله تعالى (إلى ربها ناظرة) خبر ثان للمبتدأ أو نعت لناضرة وإلى ربها
متعلق بناظرة وصحة وقوع النكرة مبتدأ لأن المقام مقام تفصيل لا على أن ناضرة صفة لوجوه والخبر
ناظرة كما قيل لما هو المشهور من أن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع
وحيث لم يكن ثبوت النضرة للوجوه كذلك فحقه أن يخبر به ومعنى كونها ناظرة إلى ربها أنها تراه تعالى
مستغرقة فى مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه وتشاهده تعالى بلا كيف ولا على جهة وليس هذا فى
جميع الأحوال حتى ينافيه نظرها إلى غيره وقيل منتظرة إنعامه ورد بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه
وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر وأن المستعمل بمعناه لا يعدى بإلى .

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ٧٥ القيامة

تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ٧٥ القيامة

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ ٧٥ القيامة

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ ٧٥ القيامة

وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ٧٥ القيامة

وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ٧٥ القيامة

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ٧٥ القيامة

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ٧٥ القيامة

وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ٧٥ القيامة

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ ٧٥ القيامة

٢٥،٢٤ (ووجوه يومئذ باسرة) شديدة العبوس وهى وجوه الكفرة (تظن) يتوقع أربابها (أن يفعل
٢٦ بها فاقرة) داهية عظيمة تقصم فقار الظهر (كلا) ردع عن إيثار العاجلة على الآخرة أى ارتدعوا عن
* ذلك وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذى ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة (إذا بلغت
٢٧ التراقى) أى بلغت النفس أعالى الصدر وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال (وقيل من
راق) أى قال من حضر صاحبها من يرقيه وينجيه مما هو فيه من الرقية وقيل هو من كلام ملائكة الموت
٢٨ أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب من الرقى (وظن أنه الفراق) وأيقن المحتضر أن
٢٩ ما نزل به الفراق من الدنيا ونعيمها (والتفت الساق بالساق) والتفت ساقه بساقه والتوت عليها عند
حلول الموت وقيل هما شدة فراق الدنيا وشدة إقبال الآخرة وقيل هما ساقاه حين تلفان فى أكفانه
٣١،٣٠ (إلى ربك يومئذ المساق) أى إلى الله وإلى حكمه يساق لا إلى غيره (فلا صدق) ما يجب تصديقه
* من الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الذى نزل عليه أو فلا صدق ماله ولا زكاه (ولا صلى) ما فرض
عليه والضمير فيهما للإنسان المذكور فى قوله تعالى أيحسب الإنسان وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون
٣٢ بالفروع فى حق المؤاخذة كما مر (ولكن كذب) ما ذكر من الرسول والقرآن (وتولى) عن الطاعة
٣٣ (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) يتبختر افتخاراً بذلك من المط فإن المتبختر يمد خطاه فيكون أصله يتمطط

أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ٧٥ القيامة

ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ ٧٥ القيامة

أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ٧٥ القيامة

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ٧٥ القيامة

ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ٧٥ القيامة

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ٧٥ القيامة

أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ٧٥ القيامة

أو من المطا وهو الظهر فإنه يلويه (أولى لك فأولى) أى ويل لك وأصله أولاك الله ماتكرهه واللام ٣٤
مزيدة كما فى ردف لكم أو أولى لك الهلاك وقيل هو أفعل من الويل بعد القلب كأدنى من دون أو
فعلى من آل يؤول بمعنى عقباك النار (ثم أولى لك فأولى) أى يتكرر عليه ذلك مرة بعد أخرى ٣٥
(أيحسب الإنسان أن يترك سدى) أى يخلى مهملا فلا يكلف ولا يجزى وقيل أن يترك فى قبره ولا ٣٦
يبعث وقوله تعالى (ألم يك نطفة من منى يمنى) الخ استئناف وارد لإبطال الحسبان المذكور فإن مداره ٣٧
لما كان استبعادهم للإعادة استدل على تحققها ببدء الخلق (ثم كان علقة) أى بقدرة الله تعالى لقوله ٣٨
تعالى ثم خلقنا النطفة علقة (فخلق) أى فقدر بأن جعلها مضغة مخلقة (فسوى) فعدل وكمل نشأته *
(فجعل منه) من الإنسان (الزوجين) أى الصنفين (الذكر والأنثى) بدل من الزوجين (أليس ٣٩،٤٠
ذلك) العظيم الشأن الذى أنشأ هذا الإنشاء البديع (بقادر على أن يحيى الموتى) وهو أهون من البدء فى *
قياس العقل . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال سبحانك بلى وعنه صلى الله عليه
وسلم من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة إنه كان مؤمناً بيوم القيامة .

سورة القيامة

ويقال لها سورة لا اقسم وهي مكية من غير حكاية خلاف ولا استثناء واختلف في عدد آيها ففى الكوفي أربعون وفي غيره تسع وثلاثون والخلاف في اتعجل به ولما قال سبحانه وتعالى في آخر المدثر كلا بل لا يخافون الآخرة بعد ذكر الجنة والنار وكان عدم خوفهم اياها لانكارهم البعث ذكر جلا وعلا في هذه السورة الدليل عليه باتم وجه ووصف يوم القيامة وأهواله واحواله ثم ذكر ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن ثم ما قبل من مبدا الخلق على عكس الترتيب الواقعى فقال عز من قائل عظيم

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ادخال لا النافية صورة على فعل القسم مستفيض في كلامهم واشعارهم قال امرؤ القيس

لا وأبيك ابنة العامرى ☆ لايدعى القوم انى أفر

وقول غوية بن سلمى يرثى ألا نادت أمامة باحتمال ☆ لتحزننى فلا يك ما أبالى

وملخص ماذهب اليه جارالله فى ذلك ان لا هذه اذاوقعت فى خلال الكلام كقوله تعالى فلاوربك لا يؤمنون فهى صلة

تزاد لتأكيد القسم مثلها في قوله تعالى لئلا يعلم لتأكيد العلم وانها اذا وقعت ابتداء كما في هذه السورة وسورة البلد فهي للنفي لان الصلة انما تكون في وسط الكلام ووجهه ان انشاء القسم يتضمن الاخبار عن تعظيم المقسم به فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية والمراد انه لايعظم بالقسم لانه في نفسه عظيم اقسم به أولا ويترقى من هذا التعظيم الى تأكيد المقسم عليه اذ المبالغة في تعظيم المقسم به تتضمن المبالغة فيه فما يختلج في بعض الخواطر من انه يلزم ان يكون على هذا اخبارا لا انشاء فلا يستحق جوابا وان المعنى على تعظيم المقسم عليه لا المقسم به مدفوع ووراء ذلك اقوال فقيل انها لنفي الاقسام لوضوح الامر وقال الفراء لنفي كلام معهود قبل القسم ورده فكأنهم هنا انكروا البعث فقيل لاأى الامر كذلك ثم قيل اقسم بيوم القيامة وقدح الامام فيه باعادة حرف النفي بعد وقيل انها ليست لا وانما اللام أشبعت فتحتها فظهر من ذلك ألف والاصل لاقسم كما قرأ به قنبل وروى عن البزى والحسن وهي لام الابتداء عند بعض والاصل لانا اقسم وحذف المبتدا للعلم به ولام التاكيد دخلت على الفعل المضارع كما في ان ربك ليحكم بينهم والاصل انى لاقسم عند بعض ولام القسم ولم يصحبها نون التوكيد لعدم لزوم ذلك وانما هو أغلبي على ماحكي عن سيبويه مع الاعتماد على المعنى عند آخرين وقال الجمهور انها صلة واختاره جار الله في المفصل وما ذكر من الاختصاص غير مسلم لان الزيادة اذا ثبتت في القسم فلا فرق بين الاول الكلام وأوسطه لأنه مسلم لكن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض لان كونه كذلك بالنسبة الى التناقض ونحوه لا بالنسبة الى مثل هذا الحكم ثم فهم ماذكره في توجيه النفي من اللفظ بعيد وحال سائر الاقوال غير خفي وقد مر بعض الكلام في ذلك فتذكر والكلام في قوله تعالى ﴿ ولاأُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ على ذلك النمط بيد أنه قيل على قراءة لاقسم فيما قبل ان المراد هنا النفي على معنى انى لاقسم بيوم القيامة لشرفه ولاأقسم بالنفس اللوامة لخستها وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن قتادة مايقتضيه وحكاه في البحر عن الحسن وقال قتادة في هذه النفس هي الفاجرة الجشعة اللوامة لصاحبها على مافاته من سعي الدنيا واغراضها وجاء نحوه في رواية عن ابن عباس والحق انه تفسير لايناسب هذا المقام ولذلك قيل هي النفس المتقية التى تلوم النفوس يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى والمبالغة بكثرة المفعول وقال مجاهد هي التى تلوم نفسها على مافات وتندم على الشر لم فعلته وعلى الخير لم لم تستكثر منه فهي لم تزل لائمة وان اجتهدت في الطاعات فالمبالغة في الكيف باعتبار الدوام وقيل المراد بالنفس اللوامة جنس النفس الشاملة للتقية والفاجرة لما روى انه صلى الله تعالى عليه وسلم قال ليس من نفس برة ولافاجرة الا وتلوم نفسها يوم القيامة ان عملت خيرا قالت كيف لم أزدمنه وان عملت شرا قالت ليتنى قصرت وضمها الى يوم القيامة لان المقصود من اقامتها مجازاتها وبعثها فيه وضعف بان هذا القدر من اللوم لايكون مدارا للاعظام بالاقسام وان صدر عن النفس المؤمنة المسيئة فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس واجيب بأن القسم بها حينئذ بقطع النظر عن الصفة والنفس من حيث هي شريفة لانها الروح التى هي من عظيم امر الله عز وجل وفيه انه لا يظهر لذكر الوصف حينئذ فائدة والامام اوقف الخبر على ابن عباس واعترضه بثلاثة اوجه واجاب عنها بحمل اللوم على تمنى الزيادة وتمنى ان لم يكن ما وقع من المعصية واقعا وما ذكر من توجيه الضم لا يخص هذا الوجه كما لا يخفى وقيل المراد بها نفس آدم عليه السلام فانها لم تزل تلوم نفسها على فعلها الذى خرجت به من الجنة واكثر الصوفية على ان النفس اللوامة فوق الامارة وتحت المطمئنة وعرفوا الامارة بأنها هي التى تميل الى الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب الى الجهة السفلية وقالوا هي مأوى الشرور ومنبع الاخلاق الذميمة وعرفوا

اللوامة بانها هي التى تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت عن سنة الغفلة فكلما صدر عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية اخذت تلوم نفسها ونفرت عنها وعرفوا المطمئنة بانها التى تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالاخلاق الحميدة وسكنت عن منازعة الطبيعة ومنهم من قال في اللوامة هى المطمئنة اللائمة للنفس الامارة ومنهم من قال هى فوق المطمئنة وهي التى ترشحت لتأديب غيرها الى غير ذلك والمشهور عنهم تقسيم مراتب النفس الى سبع منها هذه الثلاثة وفي سير السلوك الى ملك الملوك كلام نفيس في ذلك فليراجعه من شاء وجواب القسم ما دل عليه قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ وهو ليبعثن وقيل هو أيحسب الخ وقيل بلى قادرين وكلاهما ليسا بشيء أصلا كزعم عدم الاحتياج الى جواب لان المراد نفى الاقسام والمراد بالانسان الجنس والهمزة لانكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف أى ايحسب أن الشأن لن نجمع بعد التفرق عظامه وحاصله لم يكون هذا الحسبان الفارغ عن الامارة المنافي لحق اليقين وصريحه والنسبة الى الجنس لان فيه من يحسب ذلك بل لعله الاكثرون وجوز ان يكون التعريف للعهد والمراد بالانسان عدى بن أبى ربيعة ختن الاخنس بن شريق وهما اللذان كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فيهما اللهم أكفنى جارى السوء فقد روى انه جاء اليه عليه الصلاة والسلام فقال يامحمد حدثنى عن يوم القيامة متى يكون وكيف يكون أمره فأخبره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يامحمد ولم أومن به أويجمع الله تعالى هذه العظام فنزلت وقيل أبو جهل فقد روى أنه كان يقول أيزعم محمد أن يجمع الله تعالى هذه العظام بعد بلائها وتفرقها فيعيدها خلقا جديدا فنزلت وليس كارادة الجنس وسبب النزول لايعينه وذكر العظام وان المعنى على اعادة الانسان وجمع اجزائه المتفرقة لما انها قالب الخلق وقرأ قتادة تجمع بالتاء الفوقية مبنيا للمفعول عظامه بالرفع على النيابة ﴿ بَلَى ﴾ أى نجمعها بعد تفرقها ورجوعها رميما ورفاتا فى بطون البحار وفسيحات القفار وحيثما كانت حال كوننا ﴿ قَادِرِينَ ﴾ فقادرين حال من فاعل الفعل المقدر بعد بلى وهو قول سيبويه وقيل منصوب على انه خبر كان أى بلى كنا قادرين في البدء أفلانقدر في الاعادة وهو كما ترى وقيل انتصب لانه وقع في موضع نقدر اذالتقدير بلى نقدر فلما وضع موضع الفعل نصب حكاه مكي وقال انه بعيدمن الصواب يلزم عليه نصب قائم في قولك مررت برجل قائم لانه في موضع يقوم فتأمل وقرأ ابن أبى عبلة وابن السميفع قادرون أى نحن قادرون ﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ هي اسم جنس جمعى واحده بنانة وفسرها الراغب بالاصابع ثم قال قيل سميت بذلك لان بها صلاح الاحوال التى يمكن للانسان أن يبين بها ما يريد أى يقيم غيره بما صغر من عظام الاطراف كاليدين والرجلين وفي القاموس البنان الاصابع أو أطرافها فالمعنى نجمع العظام قادرين على تأليف جمعها واعادتها الى التركيب الاول والى أن نسوى أصابعه التى هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه أو على أن نسوى ونضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها الى بعض كما كانت أولا من غير نقصان ولا تفاوت بكيف بكبار العظام وما ليس في الاطراف منها وفي الحال المذكورة أعنى قادرين على الخ بعد الدلالة على التقييد تأكيد لمعنى الفعل لان الجمع من الافعال التى لابد فيها من القدرة فاذا قيد بالقدرة البالغة فقد أكد والوجه الاول من المعنى يدل على تصوير الجمع وانه لا تفاوت بين الاعادة والبدء في الاشتمال على جميع الاجزاء التى كان بها قوام البدن أو كماله والثانى يدل على تحقيق الجمع التام فانه اذا قدر على جمع الالطف الابعد عادة عن الاعادة فعلى جمع

غيره أقدر ولعله الاوفق بالمقام ويعلم منهما نكتة تخصيص البنان بالذكر وقيل المعنى بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه أن نجعلها مستوية شيئا واحدا كخف البعير وحافر الحمار ولا نفرق بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل باصابعه المفرقة ذات المفاصل والانامل من فنون الاعمال والبسط والقبض والتأتى لما يريد من الحوائج وروى هذا من ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك ولعل المراد نجمعها ونحن قادرون على التسوية وقت الجمع فالكلام يفيد المبالغة السابقة لكن من وجه آخر وهو انه سبحانه اذا قدر على اعادته على وجه يتضمن تبديل بعض الاجزاء فعلى الاحتذاء بالمثال الاول في جميعه أقدر وأبو حيان حكى هذا المعنى عن الجمهور لكن قيد التسوية فيه بكونها في الدنيا وقال ان في الكلام عليه توعدا ثم تعقب ذلك بانه خلاف الظاهر المقصود من سوق الكلام والامر كما قال لو كان كما فعل فلا تغفل ولا يخفى ان في الاتيان بلا أولا وحذف جواب القسم والاتيان بقوله سبحانه أيحسب ورعاية أسلوب * وثناياك انها اغريض * في القسم بيوم البعث والمبعوث فيه ثم ايثار لفظ الحسبان والاتيان بهمزة الانكار مسنداً الى الجنس وبحرف الايجاب والحال بعدها من المبالغات في تحقيق المطلوب وتفخيمه وتهجين المعرض عن الاستعداد له ماتبهر عجائبه ثم الحسن كل الحسن في ضمن حرف الاضراب في قوله سبحانه ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَه ﴾ وهو عطف على أيحسب جيء للاضراب عن انكار الحسبان الى الاخبار عن حال الانسان الحاسب بما هو أدخل في اللوم والتوبيخ من الاول كانه قيل دع تعنيفه فانه أشط من ذلك وأنى يرتدع وهو يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الاوقات وفيما يستقبله من الزمان لاينزع عنه أو هو عطف على يحسب منسحبا عليه الاستفهام أو على أيحسب مقدرا فيه ذلك أى بل أيريد جيء به زيادة انكار في ارادته هذه وتنبيها على أنها افظع من الاول الدلالة على ان ذلك الحسبان بمجرده ارادة الفجور كما تقول في تهديد جمع عاثوا في البلد أيحسبون أن لايدخل الامير بل يريدون ان يتملكوا فيه لم تقل هذا الا وانت مترق في الانكار منزل عيثهم منزلة ارادة التملك وعدم العبء بمكان الامير والى هذين الوجهين أشار جار الله على ماقرر في الكشف والوجه الاول ابلغ لان هذا على الترقي والاول اضراب عن الانكار وايهام ان الامر أطم من ذلك وأطم وفيهما ايماء الى أن ذلك الانسان عالم بوقوع الحشر ولكنه متغاب واعتبر الدوام في ليفجر لانه خبر عن حال الفاجر بانه يريد ليفجر في المستقبل على أن حسبانه وارادته هما عين الفجور وقيل لان امامه ظرف مكان استعير هنا للزمان المستقبل فيفيد الاستمرار وفي اعادة المظهر ثانيا مالا يخفى من التهديد والنعي على قبيح ما ارتكبه وان الانسانية تأبى هذا الحسبان والارادة وعود ضمير أمامه على هذا المظهر هو الاظهر وعن ابن عباس مايقتضي عوده على يوم القيامة والاول هو الذى يقتضيه كلام كثير من السلف لكنه ظاهر في عموم الفجور قال مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدى فى الآية ان الانسان انما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبدا قدما راكبا رأسه ومطيعا أمله ومسوفا لتوبته وهو حسن لا يأبى ذلك الاضراب وفيه اشارة الى أن مفعول يريد محذوف دل عليه ليفجر وقال بعضهم هو منزل منزلة اللازم ومصدره مقدر بلام الاستغراق أى يوقع جميع ارادته ليفجر وعن الخليل وسيبويه ومن تبعهما في مثله ان الفعل مقدر بمصدر مرفوع بالابتداء وليفجر خبر فالتقدير هنا بل ارادة الانسان كائنة ليفجر ﴿ يَسْئَلُ ﴾ سؤال استهزاء ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ﴾ أى متى يكون والجملة قيل حال وقيل تفسير ليفجر وقيل بدل منه واختار المحققون انه استئناف بيانى جيء به تعليلا لارادة الدوام على الفجور اذ هو في معنى لانه أنكر البعث واستهزأ به وفيه ان من أنكر البعث لامحالة يرتكب أشد

الفجور وطرف من قوله تعالى هيهات هيهات لما توعدون ان هي الا حياتنا الدنيا ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ تحير فزعا وأصله من برق الرجل اذا نظر الى البرق فدهش بصره ومنه قول ذى الرمة

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت ✽ لعينيه مى سافرا كاد يبرق

ونظيره قمر الرجل اذا نظر الى القمر فدهش بصره وكذلك ذهب وبقر للدهش من النظر الى الذهب والبقر فهو استعارة أو مجاز مرسل لاستعماله فى لازمه أو فى المطلق وقرأ نافع وزيد بن ثابت وزيد بن على وابان عن عاصم وهارون ومحبوب كلاهما عن ابى عمرو وخلق آخرون برق بفتح الراء فقيل هى لغة فى برق بالكسر وقيل هو من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه وقرا ابو السمال بلق باللام عوض الراء أى انفتح وانفرج يقال بلق الباب أبلقته وبلقته فتحته هذا قول أهل اللغة الا الفراء فانه يقول بلقه وابلقه اذا اغلقه وخطأه ثعلب وزعم بعضهم انه من الاضداد والظاهر ان اللام فيه أصلية وجوز أن تكون بدلا من الراء فهما يتعاقبان فى بعض الكلم نحو نثر ونثل ووجر ووجل ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة وزيد بن على ويزيد بن قطيب خسف القمر على البناء للمفعول ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ حيث يطلعهما الله تعالى من المغرب على ما روى عن ابن مسعود ولا ينافيه الخسوف اذ ليس المراد به مصطلح أهل الهيئة وهو ذهاب نور القمر لتقابل النيرين وحيلولة الارض بينهما بل ذهاب نوره لتجل خاص فى ذلك اليوم أو لاجتماعه مع الشمس وهو المحاق وجوز أن يكون الخسوف بالمعنى الاصطلاحى ويعتبر فى وسط الشهر مثلا ويعتبر الجمع فى آخره اذ لا دلالة على اتحاد وقتيهما فى النظم الجليل وأنت تعلم أن هذا خسوف يزرى بحال أهل الهيئة ولا يكاد يخطر لهم ببال كالجمع المذكور وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء ابن يسار قال يجمعان ثم يقذفان فى البحر فيكون نار الله الكبرى وتوسعة البحر أو تصغيرهما مما لا يعجز الله عز وجل وأحوال يوم القيامة على خلاف النمط الطبيعى وحوادثه أمور وراء الطبيعة فلا يقال أين البحر من جرم القمر فضلا عن جرم الشمس الذى هو بالنسبة اليها كالبعوضة بالنسبة الى الفيل ولا كيف يجمعان ويقذفان وقيل يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران فى النار وعن على كرم الله تعالى وجهه وابن عباس يجمعان ويجعلان فى نور الحجب وقيل يجمعان ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر وقيل جمعا فى ذهاب الضوء وروى عن مجاهد وهو اختيار الفراء والزجاج فالجمع مجاز عن التساوى صفة وفيه بعد اذ كان الظاهر عند ارادة ذلك ان يقال من أول الامر وخسف الشمس والقمر ولا غبار فى نسبة الخسوف اليهما لغة وكذا الكسوف ولم يلحق الفعل علامة التأنيث لتقدمه وكون الشمس مؤنثا مجازيا وفى مثله يجوز الامران وكان اختيار ترك الالحاق لرعاية حال القمر المعطوف وقال الكسائى ان التذكير حمل على المعنى والتقدير جمع النوران أو الضياآن وليس بذاك ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم اذ تقع هذه الامور ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أى الفرار يأسا منه وجوز أبقاؤه على حقيقة الاستفهام لدهشته وتحيره وقرأ الحسن ريحانة رسول الله صلى الله تعالى عليه وعليه وسلم والحسن بن زيد وابن عباس ومجاهد وعكرمة وجماعة كثيرة المفر بفتح الميم وكسر الفاء اسم مكان قياسى من يفر بالكسر أى أين موضع الفرار وجوز أن يكون مصدرا أيضا كالمرجع وقرأ الحسن البصرى بكسر الميم وفتح الفاء ونسبها ابن عطية للزهرى اى الجيد الفرار واكثر مايستعمل هذا الوزن فى الآلات وفى صفات الخيل ومنه قوله

مكر مفر مقبل مدبر معا ✽ كجلمود صخر حطه السيل من عل

واختلف فى هذا اليوم فالاكثرون على انه يوم القيامة وهو المنصور واخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد انه قال فاذا برق البصر عند الموت والاحتضار وخسف القمر وجمع الشمس والقمر اى كور يوم القيامة وجوز ان يكون الاخيران

عند الموت ايضا ويفسر الخسوف بذهاب ضوء البصر منه وجمع الشمس والقمر باستتباع الروح حاسة البصر في الذهاب والتعبير بالشمس عن الروح وبالقمر عن حاسة البصر على نهج الاستعارة فان نور البصر بسبب الروح كما ان نور القمر بسبب الشمس اويفسر الخسوف بما سمعت وجمع الشمس والقمر بوصول الروح الانسانية الى من كانت تقتبس منه نور العقل وهم الارواح القدسية المنزهة عن النقائص فالقمر مستعار للروح والشمس لسكان حظيرة القدس والملا الاعلى لان الروح تقتبس منهم الانوار اقتباس القمر من الشمس ووجه الاتصال بما قبل على جعل الكل عند الموت أنه اذ ذاك ينكشف الامر للانسان فيعلم على أتم وجه حقيقة ما أخبر به وأنت تعلم أن هذا على علاته أقرب الى باب الاشارة على منزع الصوفية واذا فتح هذا الباب فلا حصر فيما ذكر من الاحتمال عند ذوى الالباب (كَلَّا) ردع عن طلب المفر وتمنيه (لَا وَزَرَ) لاملجأ وأصله الجبل المنيع وقد كان مفرا في الغالب لفرار العرب واشتقاقه من الوزر وهو الثقل ثم شاع وصار حقيقة لكل ملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غير ذلك ومنه قوله

لعمرك ما للفتى من وزر ☆ من الموت يدركه والكبر

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) أى اليه جل وعلا وحده استقرار العباد أى لاملجأ ولامنجى لهم غيره عز وجل أو الى حكمه تعالى استقرار أمرهم لا يحكم فيه غيره سبحانه أو الى مشيئته تعالى موضع قرارهم من جنة أو نار فمن شاء سبحانه ادخله الجنة ومن شاء أدخله النار فتقديم الخبر لافادة الاختصاص وان اختلف وجهه حسب اختلاف المراد بمستقر وكلا لاوزر يحتمل ان يكون من كلامه تعالى يقال للقائل اين المفر يوم يقوله او هو مقول اليوم على معنى ليرتدع عن طلب الفرار وتمنيه ذلك اليوم ويحتمل أن يكون من تمام قول الانسان كأنه بعد أن يقول أين المفر يعود على نفسه فيستدرك ويقول كلا لا وزر وأياما كان فالظاهر أن قوله تعالى الى ربك يومئذ المستقر استئناف كالتعليل للجملة قبله أو تحقيق وكشف لحقيقة الحال والخطاب فيه لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يحسن أن يكون من جملة ما يخاطب به القائل ذلك اليوم ولا مما يقوله لنفسه فيه لمكان يومئذ وفي البحر الظاهر أن قوله تعالى كلا لا وزر الى ربك يومئذ المستقر من تمام قول الانسان وقيل هو من كلام الله تعالى لا حكاية عن الانسان . انتهى وفيه بحث وجوز أن تكون كلا بمعنى ألا الاستفتاحية أو بمعنى حقا فتأمل ولا تغفل (يُنَبَّؤُا الْإِنْسَانُ) أى يخبر (يَوْمَئِذٍ) وذلك على ما عليه الاكثر عند وزن الاعمال (بِمَا قَدَّمَ) أى بما عمل من عمل خيرا كان أو شرا فيثاب بالاول ويعاقب على الثانى (وَأَخَّرَ) أى ترك ولم يعمل خيرا كان أو شرا فيعاقب بالاول ويثاب بالثانى أو بما قدم من حسنة أو سيئة وبما أخر ما سنه من حسنة أو سيئة يعمل بها بعده أخرج ذلك ابن المنذر وعبد بن حميد وغيرهما عن ابن مسعود وهو رواية عن ابن عباس وقال زيد بن أسلم بما قدم من ماله لنفسه فتصدق به فى حياته وبما أخر منه للوارث وزيد أو وقفه أو أوصى به وقال مجاهد والنخعى بأول عمله وآخره وأخرج ابن جرير عن ابن عباس بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة وأخرج نحوه عن قتادة وعبد بن حميد نحوه أيضا عن عكرمة وعليه فالظاهر أنه عنى بالانسان الفاجر وفصل هذه الجملة عما قبلها لاستقلال كل منها ومن قوله تعالى يقول الخ في الكشف عن شدة الامر أو عن سوء حال الانسان (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) أى حجة بينة واضحة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الاعمال السيئة كما يؤذن به كلمة على والجملة الحالية بعد فالانسان مبتدأ وعلى نفسه متعلق ببصيرة بتقدير أعمال أو المعنى عليه من غير تقدير وبصيرة خبر وهى مجاز

عن الحجة البينة الواضحة أو بمعنى بينة وهي صفة لحجة مقدرة هي الخبر وجعل الحجة بصيرة لان صاحبها بصير بها فالاسناد مجازي أوهي بمعنى دالة مجازا وجوز أن يكون هناك استعارة مكنية وتخييلية والتأنيث للمبالغة أو لتأنيث الموصوف أعني حجة وقيل ذلك لارادة الجوارح أي جوارحه على نفسه بصيرة أي شاهدة ونسب الى القتبي وجوز أن يكون التقدير عين بصيرة واليه ذهب الفراء وأنشد

كأن على ذي العقل عينا بصيرة ✿ بمجلسه أو منظر هو ناظره

يحاذر حتى يحسب الناس كلهم ✿ من الخوف لايخفى عليهم سرائره

وعليه قيل الانسان مبتدأ أول وبصيرة بتقدير عين بصيرة مبتدأ ثان وعلى نفسه خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر المبتدأ الأول واختار أبو حيان ان تكون بصيرة فاعلا بالجار والمجرور وهو الخبر عن الانسان وعمل بالفاعل لاعتماده على ذلك وأمر التأنيث ظاهر وبل للترقي على الوجهين ارادة حجة بصيرة وارادة عين بصيرة والمعنى عليهما ينبؤ الانسان بأعماله بل فيه مايجزي عن الانباء لانه عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه بما عملت لان جوارحه تنطق بذلك يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وفي كلا الوجهين كما قيل شائبة التجريد وهي في الثاني أظهر وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ أي ولو جاء بكل معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه حال من المستكن في بصيرة أو من مرفوع ينبؤ أي هو على نفسه حجة وهو شاهد عليها ولو أتى بكل عذر في الذب عنها ففيه تنبيه على أن الذب لارواج له أو ينبؤ بأعماله ويجازي ويعاقب لامحالة ولو أتى بكل عذر فهو تأكيد لمايفهم من مجموع قوله تعالى ينبؤ الانسان الخ والمعاذير جمع معذرة بمعنى العذر على خلاف القياس والقياس معاذر بغير ياء وأطلق عليه الزمخشري اسم الجمع كعادته في اطلاق ذلك على الجموع المخالفة للقياس والافهوليس من أبنية اسم الجمع وقال صاحب الفرائد يمكن أن يقال الاصل فيه معاذر فحصلت الياء من اشباع الكسرة وهو كثير أو جمع معذار على القياس وهو بمعنى العذر وتعقب بانه بهذا المعنى لم يسمع من الثقات نعم قال السدي والضحاك المعاذير الستور بلغة اليمن واحدها معذار وحكى ذلك عن الزجاج اي ولو ارخى ستوره والمعنى أن احتجابه في الدنيا واستتاره لا يغني عنه شيئا لان عليه من نفسه بصيرة وفيه تلويح الى معنى قوله تعالى وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم الآية وقيل البصيرة عليه الكاتبان يكتبان ما يكون من خير أو شر فالمعنى بل الانسان عليه كاتبان يكتبان أعماله ولو تستر بالستور ولا يكون في الكلام على هذا شائبة تجريد كما تقدم والالقاء على ارادة الستور ظاهر وأما على ارادة الاعذار فقيل شبه المجيء بالعذر بالقاء الدلو في البئر للاستقاء به فيكون فيه تشبيه ما يراد بذلك بالماء المروي للعطش ويشير الى هذا قول السدي في ذلك ولو أدلى بحجة وعذر وقيل المعنى ولو رمى بأعذاره وطرحها واستسلم وقيل ولو أحال بعضهم على بعض كما يقول بعضهم لبعض لولا أنتم لكنا مؤمنين ولو على جميع هذه الاقوال اما أن يكون معنى الشرطية منسلخا عنها كما قيل فلا جواب لها واما ان يكون باقيا فيها فالجواب محذوف يدل عليه ما قبل واستظهر الخفاجي الاول وفي الآية على بعض وجوهها دليل كما قال ابن العربي على قبول اقرار المرء على نفسه وعدم قبول الرجوع عنه والله تعالى أعلم أخرج الامام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وعبد بن حميد والطبراني وأبو نعيم والبيهقي معا في الدلائل وجماعة عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فانزل الله تعالى لاتحرك به لسانك الخ فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك اذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق وفي

لفظ استمع فاذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل فالخطاب في قوله تعالى ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والضمير للقرآن لدلالة سياق الآية نحو انا أنزلناه في ليلة القدر أى لا تحرك بالقرآن لسانك عند القاء الوحى من قبل أن يقضى اليك وحيه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أى لتأخذه على عجلة مخافة أى ينفلت منك على ما يقتضيه كلام الحبر وقيل لمزيد حبك له وحرصك على أداء الرسالة وروى عن الشعبى ولا ينافى ما ذكر والباء عليهما للتعدية ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أى اثبات قراءته فى لسانك بحيث تقرأه متى شئت فالقرآن هنا وكذا فيما بعد مصدر كالرجحان بمعنى القراءة كما في قوله

ضحوا باشمط عنوان السجود به ✡ يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

مضاف الى المفعول وثم مضاف مقدر وقيل قرآنه أى تاليفه والمعنى ان علينا جمعه أى حفظه في حياتك وتأليفه على لسانك وقيل قرآنه تأليفه وجمعه على أنه مصدر قرأت أى جمعت ومنه قولهم للمرأة التى لم تلد ماقرأت سلى قط وقول عمرو بن كلثوم

ذراعى بكرة أدماء بكر ✡ هجان اللون لم تقرأ جنينا

ويرادمن جمعه الاول جمعه في نفسه ووجوده الخارجى ومن قرآنه بهذا المعنى جمعه في ذهنه صلى الله تعالى عليه وسلم وكلا القولين لا يخفى حالهما وان نسب الاول الى مجاهد ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أى اتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام المبلغ عنا فالاسناد مجازى وفي ذلك مع اختيار نون العظمة مبالغة في ايجاب التأنى ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فكن مقفيا له لا مباريا وقيل أى فاذا قرأناه فاتبع بذهنك وفكرك قرآنه أى فاستمع وأنصت وصح هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابن عباس وعنه أيضا وعن قتادة والضحاك أى فاتبع في الاوامر والنواهى قرآنه وقيل اتبع قرآنه بالدرس على معنى كرره حتى يرسخ في ذهنك ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أى بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه على ما قيل واستدل به القاضى أبو الطيب ومن تابعه على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب لمكان ثم وتعقب بانه يجوز أن يراد بالبيان الاظهار لابيان المجمل وقد صح من رواية الشيخين وجماعة عن الحبر انه قال في ذلك ثم ان علينا أن نبينه بلسانك وفي لفظ علينا ان تقرأه ويؤيد ذلك أن المراد بيان جميع القرآن والمجمل بعضه ﴿كَلَّا﴾ ارشاد لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخذ به عن عادة العجلة وترغيب له عليه الصلاة والسلام في الاناة وبالغ سبحانه في ذلك لمزيد حبه اياه باتباعه قوله تعالى ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ تعميم الخطاب للكل كأنه قيل بل أنتم يابنى آدم لما خلقتم من عجل وجبلتم عليه تعجلون في كل شيء ولذا تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ويتضمن استعجالك لان عادة بنى آدم الاستعجال ومحبة العاجلة وفيه أيضا ان الانسان وان كان مجبولا على ذلك الا أن مثله عليه الصلاة والسلام ممن هو فى أعلى منصب النبوة لا ينبغى أن يستفزه مقتضى الطباع البشرية وأنه اذا نهى صلى الله تعالى عليه وسلم عن العجلة في طلب العلم والهدى فهؤلاء ودينهم حب العاجلة سبب الردى كأنهم نزلوا منزلة من لا ينجع فيهم النهى فانما يعابت الاديم ذو البشرة ومنه يعلم ان هذا متصل بقوله سبحانه (بل يريد الانسان ليفجر أمامه) فانه ملوح الى معنى بل تحبون الخ وقوله عز وجل لاتحرك الخ متوسط بين حبى العاجلة حبها الذى تضمنه بل يريد تلويحا وحبها الذى آذن به بل تحبون تصريحا لحسن التخلص منه الى المفاجأة والتصريح ففى ذلك تدرج ومبالغة في التقريع والتدرج وان كان يحصل لو

لم يؤت بقوله سبحانه لا تحرك الخ في البين أيضا الا انه يلزم حينئذ فوات المبالغة في التقريع وانه اذا لم تجز العجلة فى القرآن وهوشفاء ورحمة فكيف فيما هو فجور وثبور وزول ما أشير اليه من الفوائد فهو استطراد يؤدى مؤدى الاعتراض وأبلغ وأطلق بعضهم عليه الاعتراض وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ومجاهد والحسن وقتادة والجحدرى يحبون ويذرون بياء الغيبة فيهما وأمر الربط عليها كما تقدم وهي أبلغ من حيث ان فيها التفاتا وأخراجا له عليه الصلاة والسلام من صريح الخطاب بحب العاجلة مضمنا طرفا من التوبيخ على سبيل الرمز لطفا منه تعالى شانه في شانه صلى الله تعالى عليه وسلم وأما القراءة بالتاء ففيها تغليب المخاطب والالتفات وهو عكس الاول هذا خلاصة مارمز اليه جار الله على ماأفيد وقد أندفع به قول بعض الزنادقة وشرذمة من قدماء الرافضة انه لاوجه لوقوع لاتحرك بلسانك الخ في أثناء امور الآخرة ولا ربط فى ذلك بوجه من الوجوه وجعلوا ذلك دليلا لما زعموه من أن القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص منه وللعلماء حماة المسلمين وشهب سماء الدين في دفع كلام كثير منه ماتقدم وللامام أوجه فيه منها الحسن ومنها ماليس كذلك بالمرة و وقال الطيبى ان قوله تعالى كلا بل تحبون العاجلة متصل بقوله تعالى ولو ألقى معاذيره أى يقال للانسان عند القاء معاذيره كلا ان اعذارك غير مسموعة فانك فجرت وفسقت وظننت أنك تدوم على فجورك وأن لاحشر ولاحساب ولاعقاب وذلك من حبك العاجلة والاعراض عن الآخرة وكان من عادة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم انه اذا لقن القرآن ان ينازع جبريل عليه السلام القراءة وقد اتفق عند التلقين للآيات السابقة ماجرت به عادته من العجلة فلما وصل الى قوله تعالى ولو ألقى معاذيره أوحى الى جبريل عليه السلام بان يلقى اليه عليه الصلاة والسلام مايرشده الى أخذ القرآن على أكمل وجه فألقى تلك الجمل على سبيل الاستطراد ثم عاد الى تمام ما كان فيه بقوله تعالى كلا بل تحبون الخ مثاله الشيخ اذا كان يلقن تلميذه درسا أويلقى اليه فصلا ورآه في أثناء ذلك يعجل ويضطرب يقول له لاتعجل ولا تضطرب فانى اذ فرغت ان كان لك اشكال أزيله أوكنت تخاف فوتا فانا أحفظه ثم ياخذ الشيخ في كلامه ويتممه انتهى فما في البين مناسب لما وقع في الخارج دون المعنى الموحى به وخصه بعضهم لهذا بالاستطراد وأطلق آخر عليه الاعتراض بالمعنى اللغوى وهذا عندى بعيد لم يتفق مثله في النظم الجليل ولادليل لمن يراه على وقوع العجلة فى أثناء هذه الآيات سوى خفاء المناسبة وقال أبوحيان يظهر أن المناسبة بين هذه الآية وماقبلها انه سبحانه لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضا عن آيات الله تعالى ومعجزاته وانه قاصر شهواته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله تعالى وحفظها وتلقنها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله اياها ليظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله تعالى ومن يرغب عنها ❁ وبضدها تتبين الاشياء ❁انتهى وفيه ان هذا انما يحسن بعد تمام ما يتعلق بذلك المنكر والظاهر ان لا تحرك الخ وقع في البين وقال القفال قوله تعالى لا تحرك الخ خطاب للانسان المذكور في قوله تعالى ينبؤ الانسان وذلك حال انبائه بقبائح أفعاله يعرض عليه كتابه فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا فاذا اخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فقيل له لا تحرك به لسانك لتعجل به فانه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك وان نقرأها عليك فاذا قرأناه عليك فاتبع قراءته بالاقرار بأنك فعلت تلك الافعال أو التأمل فيه ثم ان علينا بيانه أى بيان أمره وشرح عقوبته والحاصل على هذا انه تعالى يوقف الكافر على جميع أعماله على التفصيل وفيه أشد الوعيد في الدنيا والتهويل في الآخرة انتهى فضمير به وكذا الضمائر بعد للكتاب المشعر به قوله تعالى ينبؤ الانسان بما قدم وأخر وكذا قوله تعالى بل

الانسان على نفسه بصيرة على قول من تفسر البصيرة بالكتابين ولعل الجملة على هذا الوجه في موضع الحال من مرفوع ينبؤ بتقدير القول كأنه قيل ينبؤ الانسان يومئذ عند أخذ كتابه بما قدم وأخر مقولا له لاتحرك به لسانك الخ فالربط عليه ظاهر جدا ومن هنا اختاره البلخي ومن تبعه لكنه مخالف للصحيح المأثور الذي عليه الجمهور من أن ذلك خطاب له صلى الله تعالى عليه وسلم والظاهر أن التحريك قبل النهي انما صدر منه عليه الصلاة والسلام بحكم الاباحة الاصلية فلا يتم احتجاج من جوز الذنب على الانبياء عليهم السلام بهذه الآية وقال الامام لعل ذلك الاستعجال ان كان مأذونا فيه عليه الصلاة والسلام الى وقت النهي وكانه أراد بالاذن الاذن الصريح المخصوص وفيه بعدما وعن الضحاك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب ذلك وشق عليه فنزل لا تحرك به الخ وليس بالثبت ولعل ظاهر الآية لايساعده ثم انه ربما يتخيل في الآية وجه غير ما ذكر عن القفال الربط عليه ظاهر أيضا وهو أنه يكون الخطاب في لاتحرك الخ لسيد المخاطبين حقيقة أو من باب اياك أعني واسمعي أو لكل من يصلح له وضمير به ونظائره ليوم القيامة والجملة اعتراض جيء به لتاكيد تهويله وتفظيعه مع تقاضي السباق له فكانه لما ذكر سبحانه مما يتعلق بذلك اليوم الذي فتحت السورة بعظامه مايتعلق قوى داعي السؤال عن توقيته وأنه متى يكون وفي أي وقت يبين لاسيما وقد استشعر أن السؤال عن ذلك اذا لم يكن استهزاء مما لاباس به فقيل لاتحرك به أي بطلب توقيته لسانك وهو نهي عن السؤال على اتم وجه كما يقال لا تفتح فمك في أمر فلان لتعجل به لتحصل علمه على عجلة ان علينا جمعه مايكون فيه من الجمع وقرآنه مايتضمن شرح أحواله وأهواله من القرآن فاذا قرأناه قرأنا مايتعلق به فاتبع قرآنه بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له ثم ان علينا بيانه اظهاره وقوعا بالنفخ في الصور وهو الطامة الكبرى وحاصله لاتسال عن توقيت ذلك اليوم العظيم مستعجلا معرفة ذلك فان الواجب علينا حكمة حشر الجمع فيه وانزال قرآن يتضمن بيان احواله ليستعد له واظهاره بالوقوع الذي هو الداهية العظمى وماعدا ذلك من تعيين وقته فلايجب علينا حكمة بل هو مناف للحكمة فاذا سالت فقد سالت ماينافيها فلا تجاب انتهى وفيه مافيه وما كنت أذكره لولا هذا التنبيه واللائق بجزالة التنزيل ولطيف اشاراته ما أشار اليه ذو اليد الطولى جار الله تجاوز الله تعالى عن تقصيراته فتأمل فلا حجر على فضل الله عز وجل ولما ردع سبحانه عن حب العاجلة وترك الآخرة عقب ذلك بما يتضمن تأكيد هذا الردع مما يشير الى حسن عاقبة حب الآخرة وسوء مغبة العاجلة فقال عز من قائل ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ أي وجوه كثيرة وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم اذ تقوم القيامة بهية متهللة من عظيم المسرة يشاهد عليها نضرة النعيم على ان وجوه مبتدا وناضرة خبره ويومئذ منصوب بناضرة وناظرة في قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ خبر ثان للمبتدا اونعت لناضرة والى ربها متعلق بناظرة وصح وقوع النكرة مبتدا لان الموضع موضع تفصيل كما في قوله

فيوم لنا ويوم علينا * ويوم نساء ويوم نسر

لاعلى ان النكرة تخصصت بيومئذ كما زعم ابن عطية لان ظرف الزمان لايكون صفة للجثث ولاعلى ان ناضرة صفة لها والخبر ناظرة كما قيل لما ان المشهور الغالب كون الصفة معلومة الانتساب الى الموصوف عند السامع وثبوت النظرة للوجوه ليس كذلك لخفته أن يخبر به نعم ذكر هذا غير واحد احتمالا في الآية وقال فيه أبو حيان هو قول سائغ ومعنى كونها ناظرة الى ربها انها تراه تعالى مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه وتشاهده تعالى على ما يليق بذاته سبحانه ولا حجر على الله عز وجل وله جل وعلا لتنزه الذاتي التام

في جميع تجلياته واعترض بأن تقديم المعمول يعنى الى ربها يفيد الاختصاص كما فى نظائره في هذه السورة وغيرها وهو لايتأتى لو حمل ذلك على النظر بالمعنى المذكور ضرورة انهم ينظرون الى غيره تعالى وحيث كان الاختصاص ثابتا كان الحمل على ذلك باطلا وفيه ان التقديم لايتمحض للاختصاص كيف والموجب من رعاية الفاصلة والاهتمام قائم ثم لو سلم فهو باق بمعنى أن النظر الى غيره تعالى في جنب النظر اليه سبحانه لايعد نظرا كما قيل فى نحو ذلك الكتاب على ان ذلك ليس في جميع الاحوال بل في بعضها وفي ذلك لاالتفات الى ما سواه جل جلاله فقد أخرج مسلم والترمذى عن صهيب عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون الم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الله تعالى الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب اليهم من النظر الى ربهم وفى حديث جابر وقد رواه ابن ماجه فينظر اليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون الى شىء من النعيم ما داموا ينظرون اليه حتى يحتجب عنهم ومن هنا قيل

فينسون النعيم اذا رأوه ✡ فياخسران أهل الاعتزال

وكثيرا ما يحصل نحو ذلك للعارفين في هذه النشأة فيستغرقون فى بحار الحب وتستولى على قلوبهم أنوار الكشف فلا يلتفتون الى شىء من جميع الكون

فلما استبان الصبح أدرج ضوءه ✿ باسفاره أنوار ضوء الكواكب

وقيل الكلام على حذف مضاف أى الى ملك أو رحمة أو ثواب ربها ناظرة والنظر على معناه المعروف أو على حذف مضاف والنظر بمعنى الانتظار فقد جاء لغة بهذا المعنى أى الى انعام ربها منتظرة وتعقب بأن الحذف خلاف الظاهر وما زعموا من الداعى مردود في محله وبان النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بالى بل بنفسه وبانه لا يسند الى الوجه فلا يقال وجه زيد منتظر والمتبادر من الاسناد اسناد النظر الى الوجوه الحقيقية وهو يأبى ارادة الذات من الوجه وتفصى الشريف المرتضى في الدرر عن بعض هذا بان الى اسم بمعنى النعمة واحد الآلاء وهو مفعول به لناظرة بمعنى منتظرة فيكون الانتظار قد تعدى بنفسه وفيه من البعد مافيه والزمخشرى اذا تحققت كلامه رأيته لم يدع ان النظر بمعنى الانتظار ليتعقب عليه بما تعقب بل أراد ان النظر بالمعنى المتعارف كناية عن التوقع والرجاء فالمعنى عنده انهم لا يتوقعون النعمة والكرامة الامن ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون الا اياه سبحانه وتعالى ويرد عليه أنه يرجع الى ارادة الانتظار لكن كناية والانتظار لا يساعده المقام اذ لا نعمة فيه وفى مثله قيل الانتظار موت أحمر والذى يقطع الشغب ويدق في فروة من أخس الطلب ما أخرجه الامام أحمد والترمذى والدار قطنى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى وعبد بن حميد وابن أبى شيبة وغيرهم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر الى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة الف سنة وأكرمهم على الله من ينظر الى وجهه غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فهو تفسير منه عليه الصلاة والسلام ومن المعلوم أنه أعلم الاولين والآخرين لاسيما بما أنزل عليه من كلام رب العالمين ومثل هذا فيما ذكر ما أخرجه الدارقطنى والخطيب في تاريخه عن أنس ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقرأه وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فقال والله ما نسخها منذ أنزلها يزورون ربهم تبارك وتعالى فيطعمون ويسقون ويطيبون ويحلون ويرفع الحجاب بينه وبينهم فينظرون اليه وينظر اليهم عز وجل وهذا الحجاب على ما قال السادة من قبلهم لامن قبله عز وجل وأنشدوا

وكنا حسبنا ان ليلى تبرقعت * وأن حجابا دونها يمنع اللثما
فلاحت فلا والله ماثم حاجب * سوى أن طرفي كان عن حسنها أعمى

ثم ان اجهل الخلق عندهم المعتزلة واشدهم عمى وأدناهم منزلة حيث انكروا صحة رؤيته من لاظاهر سواه بل لاموجود على الحقيقة الاإياه وأدلة انكارهم صحة رؤيته تعالى مذكورة مع ردودها في كتب الكلام وكذا أدلة القوم على الصحة وكأني بك بعد الاحاطة وتدقيق النظر تميل الى أنه سبحانه وتعالى يرى لكن لا من حيث ذاته سبحانه البحت ولا من حيث كل تجل حتى تجليه بنوره الشعشعاني الذي لايطاق وقرأ زيد بن علي وجوه يومئذ نضرة بغير ألف ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أى شديدة العبوس وباسل أبلغ من باسر فيما ذكر لكنه غلب في الشجاع اذا اشتدت كلوحته فعدل عنه لايهامه غير المراد وعني بهذه الوجوه وجوه الكفرة ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أى داهية عظيمة تقصم فقار الظهر من فقره أصاب فقاره وقال أبو عبيدة فاقرة من فقرت البعير اذا وسمت أنفه بالنار وفاعل تظن ضمير الوجوه بتقدير مضاف أى تظن اربابها وجوز أن يكون الضمير راجعا اليها على ان الوجه بمعنى الذات استخداما وفيه بعد والظن قيل أريد به اليقين واختاره الطيبي وان المصدرية لاتقع بعد فعل التحقيق الصرف دون فعل الظن أومايؤدي معنى العلم فتقع بعده كالمشددة والمخففة على ما نص عليه الرضى وقيل هو على معناه الحقيقي المشهور والمراد تتوقع ذلك واختاره من اختاره ولا دلالة فيه بواسطة التقابل على أن يكون النظر ثم بالمعنى المذكور كما زعمه من زعمه وتحقيق ذلك ان ما يفعل بهم في مقابلة النظر الى الرب سبحانه لكون ذلك غاية النعمة وهذا غاية النقمة وجيء بفعل الظن ههنا دلالة على أن ما هم فيه وان كان غاية الشر يتوقع بعده أشد منه وهكذا أبدا وذلك لان المراد بالفاقرة مالا يكتنه من العذاب فكل ما يفعل به من أشده استدل منه على آخر وتوقع أشد منه واذا كان ظانا كان أشد عليه مما اذا كان عالما موطنا نفسه على الامر على ان العلم بالكائن واقع لا بما يتجدد آنا فآنا فهذا وجه الاتيان بفعل الظن ولم يؤت في المقابل بفعل ظن أوعلم لانهم وصلوا الى ماالامطلوب وراءه وذاقوه ثم بعد ذلك التفاوت في ذلك النظر قوة وضعفا بالنسبة الى الرائي على ماقرره فلعل هذا حجة على الزاعم لاله أسبغ الله تعالى علينا برؤيته فضله ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن ايثار العاجلة على الآخرة كانه قيل ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذي تنقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أى النفس أو الروح الدال على سياق الكلام كما في قول حاتم

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

ونحو قول العرب أرسلت يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يقولون أرسلت السماء نعم قد يصرح فيما هنا بالفاعل فيقال بلغت النفس ﴿ التَّرَاقِيَ ﴾ أى أعالي الصدر وهي العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال جمع ترقوة وأنشدوا لدريد بن الصمة

ورب عظيمة رافعت عنهم * وقد بلغت نفوسهم التراقي

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أى قال من حضر صاحبها من يرقيه وينجيه مما هو فيه من الرقية وهي مايستشفى به الملدوغ والمريض من الكلام المعد لذلك ومنه آيات الشفاء ولعله أريد به مطلق الطبيب أعم من أن يطب بالقول أو بالفعل وروى عن ابن عباس والضحاك وأبو قلابة وقتادة ما هو ظاهر فيه والاستفهام عند بعض حقيقي وقيل هو استفهام استبعاد وانكار أى قد بلغ مبلغا لا أحد يرقيه كما يقال عند اليأس من ذا الذي يقدر أن يرقى هذا المشرف على الموت وروى

ذلك عن عكرمة وابن زيد وقيـل هو من كلام ملائكة الموت أى أيكم يرقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب من الرقى وهو العروج وروى هـذا عن ابن عباس ايضا وسليمان التيمى والاستفهام عليه حقيقى وتعقب بأن اعتبار ملائكة الرحمة يناسب قوله تعالى بعـد فلا صدق الخ ودفع بأن الضمير للانسان والمراد به الجنس والاقتصار بعد ذلك على احوال بعض الفريقين لاينافي العموم فيما قبل ووقف حفص رواية عن عاصم على من وابتدا راق وادغم الجمهور قال ابو على لاادرى ما وجه قراءته وكذلك قرأ بل ران وقال بعضهم كأنه قصد أن لايتوهم انهما كلة واحدة فسكت سكتة لطيفـة ليشعر انهما كلمتـان والا فكان ينبغى ان يدغم في من راق فقد قال سيبويه ان النون تدغم في الراء وذلك نحو من راشد والادغام بغنة وبغير غنة ولم يذكر الاظهار ويمكن ان يقال لعل الاظهار رأى كوفي فعاصم شيخ حفص يذكر انه كان عالما بالنحو واما بل ران فقد ذكر سيبويه في ذلك ايضا ان اظهار اللام وادغامها مع الراء حسنان فلعل حفصا لما أفرط في اظهار الاظهار فيه صار كالوقف القليل واستدل بقوله تعالى اذا بلغت التراقى على ان النفس جسم لاجوهر مجرد اذ لا يتصف بالحركة والتحيز وأجاب بعض بأن هذه النفس المسند انيها بلوغ التراقى هي النفس الحيوانية لا الروح الامرية وهي الجوهر المجرد دون الحيوانية وآخر بأن المراد ببلوغها التراقى قرب انقطاع التعلق وهو ممـا يتصف به المجرد اذ لا يستدعى حركة ولاتحيزا ولا نحوهما مما يستحيل عليه وزعم انه لايمكن ارادة الحقيقة ولو كانت النفس جسما ضرورة ان بلوغها التراقى لايتحقق الا بعـد مفارقتها القلب وحينئذ يحصل الموت ولا يقال من راق كما هو ظاهر على الوجه الاول فيه ولا يتأتى أيضا مايذكر بعد على ما ستعلمه ان شاء الله تعالى فيه والذى عليه جمهور الامة سلفا وخلفا ان النفس وهي الروح الامرية جسم لطيف جدا ألطف من الضوء عنـد القائل بجسميته والنفس الحيوانيـة مركب لها وهي سارية في البدن نحو سريان ماء الورد فى الورد والنار في الفحم وسريان السيال الكهربائى عند القائل به في الاجسام والادلة على جسميتها كثيرة وقد استوفاها الشيخ ابن القيم في كتاب الروح وأتى فيه بالعجب العجاب ثم الظاهر ان المراد ببلوغ التراقى مشارفة الموت وقرب خروج الروح من البدن سلمت الضرورة التى في كلام ذلك الزاعم أم لم تسلم لقوله تعالى وقيل من راق ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ أى وظن الانسان المحتضر أن ما نزل به الفراق من حبيبته الدنيا ونعيمها وقيل فراق الروح الجسد والظن هنا عند أبى حيان على بابه وأكثر المفسرين على تفسيره باليقين قال الامام ولعله انما سمى اليقين ههنا بالظن لان الانسان مادامت روحه متعلقة ببدنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها فلايحصل له يقين الموت بل الظن الغالب مع رجاء الحياة أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ أى التفت ساقه بساقه والتوت عليها عند هلع الموت وقلبه كما روى عن الشعبى وقتادة وأبى مالك وقال الحسن وابن المسيب هما ساقا الميت عند مالفا في الكفن وقيل المراد بالتفافهما انتهاء أمرهما وما يراد فيهما يعنى موتهما وقيل يبسهما بالموت وعدم تحرك احداهما عن الاخرى حتى كأنهما ملتفتان فهما أول مايخرج الروح منه فتبردان قبل سائر الاعضاء وتيبسان فالساق بمعناها الحقيقى وأل فيها عهدية أوعوض عن المضاف اليـه وقال ابن عبـاس والربيع ابن أنس واسمعيل بن أبى خالد وهو رواية عن الحسن أيضا التفت شدة فراق الدنيا بشدة اقبال الآخرة واختلطتا ونحوه قول عطاء اجتمع عليه شدة مفارقة المألوف من الوطن والاهل والولد والصديق وشدة القدوم على ربه جل شأنه لا يدرى بماذا يقدم عليه فالساق عبارة عن الشدة وهو مثل في ذلك والتعريف للعهد وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك التفت أسوق حاضريه من الانس والملائكة هؤلاء يجهزون

بدنه الى القبر وهؤلاء يجهزون روحه الى السماء فكانهم للاختلاف في الذهاب والاياب والتردد في الاعمال قد التفت أسوقهم وهذا الالتفاف على حد اشتباك الاسنة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أى الى الله تعالى وحكمه سوقه لا الى غيره على أن المساق مصدر ميمى كالمقال وتقديم الخبر للحصر والكلام على تقدير مضاف هو حكم وقيل هو موعد والمراد به الجنة والنار و قيل ليس هناك مضاف مقدر على ان الرب جل شأنه هو السائق أى سوق هؤلاء مفوض الى ربك لا الى غيره والظاهر ماتقدم ثم ان كان هذا في شان الفاجر أو فيما يعمه والبر يراد بالسوق السوق المناسب للمسوق وهذه الآية لعمرى بشارة لمن حسن ظنه بربه وعلم أنه الرب الذى سبقت رحمته على غضبه

قالوا غدا نأتى ديار الحمى ✡ وينزل الركب بمغناهم
فقلت لى ذنب فما حيلتى ✡ باى وجه أتلقاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم ✡ لاسيما عمن ترجاهم

ثم ان جواب اذ محذوف دل عليه ماذكر أى كان ما كان أو انكشفت للمرء حقيقة الامر أو وجد الانسان ماعمله من خير أو شر ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أى مايجب تصديقه من الله عز وجل والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والقرآن الذى أنزل عليه ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ مافرض عليه أى لم يصدق ولم يصل فلا داخلة على الماضى كما في قوله

آن تغفر اللهم تغفر جما ✡ وأى عبد لك لا ألما

والضمير في الفعلين للانسان المذكور في قوله تعالى أيحسب الانسان والجملة عطف على قوله سبحانه يسال أيان يوم القيامة على ماذهب اليه الزمخشرى فالمعنى بناء على ماعلمت من أن السؤال سؤال استهزاء واستبعاد استبعد البعث وأنكره فلم يأت بأصل الدين وهو التصديق بما يجب تصديقه به ولا باهم فروعه وهو الصلاة ثم أكد ذلك بذكر مايضاده بقوله تعالى ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ نفيا لتوهم السكوت أو الشك أى ومع ذلك أظهر الجحود والتولى عن الطاعة ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ يتبختر افتخارا بذلك ومن صدر عنه مثل ذلك ينبغى أن يخاف من حلول غضب الله تعالى به فيمشى خائفا متطامنا لا فرحا متبخترا فثم للاستبعاد ويتمطى من المط فان المتبختر يمد خطاه فيكون أصله يتمطط قلبت الطاء فيه حرف علة كراهة اجتماع الامثال كما قالوا تظنى من الظن وأصله تظنن أو من المطا وهو الظهر فان المتبختر يلوى مطاه تبخترا فيكون معتلا بحسب الاصل وفي الحديث اذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل باسهم بأنهم وسلط شرارهم على خيارهم وجعل الطيبى عطف هذه الجملة للتعجب على معنى يسأل ايان يوم القيامة وما استعد له الا ما يوجب دماره وهلاكه . وقال ان قوله تعالى (فاذا برق البصر) الخ جواب عن السؤال أقحم بين المعطوف والمعطوف عليه لشدة الاهتمام وان قوله سبحانه لا تحرك الخ استطراد على ما سمعت وجعل صدق من التصديق هو المروى عن قتادة وقال قوم هو من التصدق أى فلا صدق ماله ولا زكاه قال أبو حيان وهذا الذى يظهر نفى عنه الزكاة والصلاة وأثبت له التكذيب كما في قوله تعالى (قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين) وحمله على نفى التصديق يقتضى أن يكون ولكن كذب تكراراً ولزم أن يكون استدراكا بعد ولا صلى لا بعد فلا صدق لانهما متوافقان وفيه نظر يعلم مما قررناه ثم انه استبعد العطف على قوله تعالى يسأل الخ وذكر أن الآية نزلت في أبى جهل وكادت تصرح به في قوله تعالى يتمطى فانها كانت مشيته ومشية قومه بنى مخزوم وكان

يكثر منها ولم يبين حال العطف على هذا وأنت تعلم ان العطف لايأبى حديث النزول في أبى جهل وقد قيل ان قوله تعالى أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه نازل فيه ايضا والحكم على الجنس بأحكام لايضر فيه تعين بعض أفراده فى حكم منها نعم لا شك في بعد هـذا العطف لفظا لكن في بعده معنى مقال ولعل فيما بعد مايقوى جانب العطف على ذاك ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ من الولى بمعنى القرب فهو للتفضيل في الاصل غلب فى قرب الهلاك ودعاء السوء كانه قيل هلاكا أولى لك بمعنى أهلكك الله تعالى هلاكا أقرب لك من كل شر وهلاك وهذا كما غلب بعدا وسحقا في الهلاك وفي الصحاح عن الاصمعى قاربه مايهلكه اى نزل به وأنشد

فعادى بين هاديتين منها ✽ وأولى ان تزيد على الثلاث

أى قارب ثم قال قال ثعلب ولم يقل أحد فى أولى أحسن مما قاله الاصمعى وعلى هذا أولى فعل مستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق واللام مزيدة على ما قيل وقيل هو فعل ماض دعائى من الولى أيضا الا أن الفاعل ضميره تعالى واللام مزيدة أى اولاك الله تعالى ماتكرهه او غير مزيدة اى أدنى الله تعالى الهلاك لك وهو قريب مما ذكر عن الاصمعى وعن ابى على ان أولى لك علم للويل مبنى على زنة افعل من لفظ الويل على القلب واصله اويل وهو غير منصرف للعلمية والوزن فهو مبتـدأ ولك خبره وفيـه أن الويل غير منصرف فيه ومثل يوم أيوم مع انه غير منقاس لايفرد عن الموصوف البتة وان القلب على خلاف الاصل لايرتكب الا بدليـل وان علم الجنس شيء خارج عن القيـاس مشكل التعقل خاصة فيما نحن فيه وقيل اسم فعل مبنى ومعناه وليك شر بعد شر واختار جمع انه افعل تفضيـل بمعنى الاحسن والاحرى خبر لمبتدأ محذوف يقدر كما يليق بمقامه فالتقدير هنا النار أولى لك أى أنت أحق بها وأهل لها فأولى ﴿ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ تكرير للتأكيد وقد تقدم الكلام فى ذلك فتذكر والظاهر ان الجملة تذييل للدعاء لامحل لها من الاعراب وجوز أن تكون في موضع الحال بتقدير القول كانه قيل ثم ذهب الى أهله يتمطى مقولا له أولى لك الخ ويؤيده ماأخرج النسائى والحاكم وصححه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن سعيد بن جبير قال سالت ابن عباس عن قول الله تعالى أولى لك فاولى أشيء قاله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من نفسه أم أمره الله تعالى به قال بل قال من قبل نفسه ثم أنزله الله تعالى واستدل بقوله سبحانه فلا صدق ولا صلى الخ على ان الكفار مخاطبون بالفروع فلا تغفل ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أى مهملا فلا يكلف ولا يجزى وقيل أن يترك فى قبره فلا يبعث ويقال ابل سدى أى مهملة ترعى حيث شاءت بلا راع وأسديت الشيء أى أهملته وأسديت حاجتى ضيعتها ولم أعتن بها قال الشاعر

فاقسم بالله جهد اليمـ ✽ ـين ماخلق الله شيئا سدى

ونصب سدى على الحال من ضمير يترك وان يترك في موضع المفعولين ليحسب والاستفهام انكارى وكان تكريره بعد قوله تعالى أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه لتكرير انكار الحشر قيـل مع تضمن الكلام الدلالة على وقوعه حيث ان الحكمة تقتضى الامر بالمحاسن والنهى عن القبائح والرذائل والتكليف لايتحقق الا بمجازاة وهي قد لاتكون في الدنيا فتكون في الآخرة وجعل بعضهم هذا استدلالا عقليا على وقوع الحشر وفيه بحث لا يخفى وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ الخ استئناف وارد لابطال الحسبان المذكور فان مداره لما كان استبعادهم للاعادة دفع ذلك ببدء الخلق وقرأ الحسن الم تك بتاء الخطاب على سبيل الالتفات وقرأ الا كثر تمنى بالتاء الفوقية فالضمير للنطفة أى يمنيها الرجل ويصبها في الرحم وعلى قراءة الياء وهى قراءة حفص وأبى

عمرو بخلاف عنه ويعقوب وسلام والجحدري وابن محيصن المني ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي بقدرة الله تعالى كما قال تعالى ثم خلقنا النطفة علقة ﴿فَخَلَقَ﴾ أي فقدر الله عز وجل بان جعلها سبحانه مخلوقة ﴿فَسَوَّى﴾ فعدل وكمل ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي من الانسان وقيل من المني ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ أي الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ بدل من الزوجين والخنثى لا يعدوهما وقرأ زيد بن علي الزوجان بالالف على لغة بني الحرث بن كعب ومن وافقهم من العرب من كون المثنى بالالف في جميع حالاته ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ العظيم الشأن الذي انشأ هذا الانشاء البديع ﴿بِقَادِرٍ﴾ أي قادرا وقرأ زيد يقدر مضارعا ﴿عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ وهو أهون من البدء في قياس العقل وقرأ طلحة بن سليمان والفيض بن غزوان على ان يحي بسكون الياء وانت تعلم ان حركتها حركة اعراب لا تحذف الا في الوقف وقد جاء في الشعر حذفها بدونه وعن بعضهم يحي بنقل حركة الياء الى الحاء وادغام الياء في الياء قال ابن خالويه لا يجيز أهل البصرة سيبويه واصحابه ادغام يحي قالوا لسكون الياء الثانية ولا يعتدون بالفتحة فيها لانها حركة اعراب غير لازمة والفراء اجاز ذلك واحتج بقوله تمشي بشدة فتعي بريد فتعيا وبالجملة القراءة شاذة وجاء في عدة أخبار أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية قال سبحانك اللهم وبلى وفي بعضها سبحانك فبلى وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى الى آخرها أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل بلى وانا على ذلكم من الشاهدين ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى الى أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى فليقل بلى ومن قرأ والمرسلات فبلغ فبأي حديث بعده يؤمنون فليقل آمنا بالله

سورة القِيَامة

مَكِّيَّةٌ، وهي تسع وثلاثون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[١]

[١] ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾.

[٢] ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾.

[٣] ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣﴾.

[٤] ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾.

[٥] ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾.

[٦] ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾.

قوله تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قيل: إن «لا» صلة، وجاز وقوعها في أوّل السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[٢] وجوابه في سورة أخرى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[٣] ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة؛ قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة؛ ومثله قول الشاعر:

تذكَّرتُ لَيْلَى فاعترتني صَبَابَةٌ ... فكاد صَمِيمُ القلبِ لا يَتَقَطَّعُ

---

(١) ما بين المربعين زيادة من ط. (٢) سورة الحجر ٤/١٠.

(٣) سورة القلم ١٨/ ٢٥٣.

وحكى أبو الليث السَّمرقنديّ: أجمع المفسرون أن معنى «لاَ أُقْسِمُ»: أقسم وٱختلفوا في تفسير «لا» قال بعضهم: «لا» زيادة في الكلام للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة «لا» كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ ما مَنَعَكَ أَنْ لاَ تَسْجُدَ﴾ يعني أن تسجد، وقال بعضهم: «لا»: ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم.

قلت: وهذا قول الفرّاء؛ قال الفرّاء: وكثير من النحويين يقولون «لا» صلة، ولا يجوز أن يُبدأ بجحد ثم يُجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالردّ عليهم [في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ][1] وذلك كقولهم لا والله لا أفعل فـ «لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة لحقّ، كأنك أكذبت قوماً أنكروه. وأنشد غير الفرّاء لامرىء القيس:

فـلا وأبيـكِ ٱبنـةَ العـامِـرِيِّ لا يَـدَّعِـي القـومُ أنّـي أفِـرّ

وقال غُوَيَّة بن سلمى:

ألا نـادتْ أمـامـة بـٱحتمـال لِتحزُنِني فـلا بِكِ ما أبالِي

وفائدتها توكيد القسم في الردّ. قال الفرّاء: وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ «لأُقسِمُ» بغير ألف؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم، وهو صواب؛ لأن العرب تقول: لأقسم بالله وهي قراءة الحسن وٱبن كثير والزهريّ وٱبن هُرْمز ﴿بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي بيوم يقوم الناس فيه لربّهم، ولله عزّوجلّ أن يقسم بما شاء. ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ لا خلاف في هذا بين القراء، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيماً لشأنه [ولم يقسم بالنفس][2]. وعلى قراءة ٱبن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقيل: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ ردّ آخر وٱبتداء قسم بالنفس اللوامة. قال الثعلبيّ: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً. ومعنى: ﴿بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردتُ بكذا؟ فلا تراه

---

(١) الزيادة من تفسير الفراء. (٢) الزيادة من تفسير ٱبن عطية وغيره.

إلا وهو يعاتب نفسه؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلامي؟ ما أردتُ بأكلي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لِم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه. وقيل: إنها ذات اللوم. وقيل: إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوّامة بمعنى اللائمة، وهو صفة مدح؛ وعلى هذا يجيء القسم بها سائغاً حسناً. وفي بعض التفسير: إنه آدم عليه السلام لم يزل لائماً لنفسه على معصيته التي أُخرج بها من الجنة. وقيل: اللوّامة بمعنى الملُومة المذمومة ـ عن ٱبن عباس أيضاً ـ فهي صفة ذمّ وهو قول من نفى أن يكون قسماً؛ إذ ليس للعاصي خَطَر يُقْسَم به، فهي كثيرة اللوم. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسّر في الآخرة على ما فرّط في جنب الله. وقال الفراء: ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ٱزداد إحساناً، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ٱرعوى عن إساءته.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلإِنسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ فنعيدها خلقاً جديداً بعد أن صارت رُفاتاً. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة: ليجمعن العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف أي لتبعثنّ؛ ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلإِنسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ للإحياء والبعث. والإنسان هنا الكافر المكذّب للبعث. الآية نزلت في عديّ بن ربيعة قال للنبي ﷺ: حدّثني عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ بذلك؛ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به، أَوَيجمع الله العظام؟! ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «اللهمّ ٱكفني جارَي السُّوءِ عديَّ بن ربيعة، والأخنَس بن شَرِيق». وقيل: نزلت في عدوّ الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت . وذكر العظام والمراد نفسه كلها ؛ لأن العظام قالَب الخَلْق. ﴿بَلَى﴾ وقف حسن ثم تبتدىء ﴿قَادِرِينَ﴾. قال سيبويه: على معنى نجمعها قادرين، فـ «قادِرِين» حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه

من التقدير. وقيل: المعنى بلى نقدر قادرين. قال الفراء: «قَادِرِينَ» نصب على الخروج من «نَجْمَعَ» أي نقدر ونقوى «قَادِرِينَ» على أكثر من ذلك. وقال أيضاً: يصلح نصبه على التكرير أي «بَلَى» فليحسبنا قادرين. وقيل: المضمر (كنا) أي كنا قادرين في الابتداء، وقد اعترف به المشركون. وقرأ ابن أبي عَبْلة وابن السَّمَيْقَع «بَلَى قَادِرُونَ» بتأويل نحن قادرون.

﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ البنان عند العرب: الأصابع، واحدها بنانة؛ قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَانَهُ ... عَنَمٌ يَكادُ مِن اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ[1]

وقال عنترة: :

وأنَّ الموتَ طَوْعَ يدِي إذا ما ... وَصَلْتَ بَنَانَهَا بالهِنْدُوَانِيْ

فنبّه بالبنان على بقية الأعضاء. وأيضاً فإنها أصغر العظام، فخصّها بالذكر لذلك. قال القتبيّ والزجاج: وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام؛ فقال الله تعالى: بلى قادرين على أن نعيد السُّلاَميّات على صغرها، ونؤلف بينها حتى تستوي، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر. وقال ابن عباس وعامة المفسرين: المعنى ﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخفّ البعير، أو كحافر الحمار، أو كظلف الخنزير، ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً، ولكنا فرّقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء. وكان الحسن يقول: جعل لك أصابع فأنت تبسطهنّ، وتقبضهن بهنّ، ولو شاء الله لجمعهنّ فلم تتق الأرض إلا بكفيك. وقيل: أي نقدر أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

قلت: والتأويل الأوّل أشبه بمساق الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال ابن عباس: يعني الكافر يكذّب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد؛ ودليله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾

---

(١) رواية الشطر الأخير كما في «اللسان»:

عنم على أغصانه لم يعقد

والعنم: شجر لين الأغصان لطيفها، يشبه به البنان.

أي يسأل متى يكون! على وجه الإنكار والتكذيب. فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه. ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القُتَبِيّ وغيره: أن أعرابيًّا قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكا إليه نَقْب إبله[1] ودَبَرها، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله؛ فقال الأعرابيّ:

أَقْسمَ بِاللّهِ أبو حفصٍ عُمَرْ ... ما مَسَّها مِن نَقَبٍ ولا دَبَرْ
فاغفر له اللّهمّ إنْ كان فَجَرْ

يعني إن كان كذّبني فيما ذكرت. وعن ٱبن عباس أيضاً؛ يعجِّل المعصية ويسوِّف التوبة. وفي بعض الحديث قال: يقول سوف أتوب ولا يتوب؛ فهو قد أخلف فكذب. وهذا قول مجاهد والحسن وعِكرمة والسّديّ وسعيد بن جبير، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على أشرّ أحواله. وقال الضحاك: هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت. وقيل: أي يعزم على المعصية أبداً وإن كان لا يعيش إلا مدّة قليلة. فالهاء على هذه الأقوال للإنسان. وقيل: الهاء ليوم القيامة. والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة. والفجور أصله الميل عن الحقّ. ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي متى يوم القيامة.

[٧] ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

[٩] ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾. [١٣] ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم «بَرَقَ» بفتح الراء، معناه: لمع بصره من شدّة شخوصه، فتراه لا يَطرِف. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن:

(١) النقب: قرحة تخرج في الجنب. والجرب والدبر: قرحة الدابة والبعير.

هذا يوم القيامة. وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة «إِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ». والباقون بالكسر «بَرِق» ومعناه: تحيّر فلم يَطرِف؛ قاله أبو عمرو والزجاج وغيرهما. قال ذو الرمّة:

ولو أنّ لُقْمَانَ الحكيم تَعَرَّضَتْ لِعينيهِ مَيٌّ سافِراً كاد يَبْرَقُ

الفرّاء والخليل: «برِقَ» بالكسر: فَزِع وبُهِت وتَحيَّر[1]. والعرب تقول للإنسان المتحيِّر المبهوت: قد بَرِق فهو برِقٌ؛ وأنشد الفرّاء:

فنَفْسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَنِي وداوِ الكُلُومَ ولا تَبْرِقِ[2]

أي لا تَفزَع من كثرة الكُلوم التي بك. وقيل: بَرَقَ يَبرُق بالفتح: شقّ عينيه وفتحهما. قاله أبو عبيدة: وأنشد قول الكلابيّ:

لما أتاني ابنُ عُمَيرٍ راغِباً أعطيتُه عِيساً صِهاباً فبَرقَ[3]

أي فتح عينيه. وقيل: إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءه. والخسوف في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوءه. ويحتمل أن يكون بمعنى غاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعرج: «وَخُسِفَ الْقَمَر» بضم الخاء وكسر السين يدل عليه ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾. وقال أبو حاتم محمد بن إدريس: إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كله فهو الخسوف. ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ والْقَمَرُ﴾ أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه؛ قاله الفراء والزجاج. قال الفراء: ولم يقل جمعت؛ لأن المعنى جمع بينهما. وقال أبو عبيدة: هو على تغليب المذكر. وقال الكسائيّ: هو محمول على المعنى، كأنه قال الضوءان. المبرد: التأنيث

---

(١) كلمة «تحير» ساقطة من الأصل المطبوع.

(٢) قائله: طرفة.

(٣) في غير القرطبي: لما أتاني ابن صبيح. والعيس الصهاب هي الإبل التي خالط بياضها حمرة، وهي تعد عند العرب من أشرفها.

غير حقيقي. وقال ٱبن عباس وٱبن مسعود: جمع بينهما أي قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مُكوَّرين مظلمين مُقرَنَين كأنهما ثوران عَقيران. وقد مضى الحديث بهذا المعنى في آخر سورة «الأنعام»[١]. وفي قراءة عبد الله «وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» وقال عطاء بن يسار: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر، فيكونان نار الله الكبرى. وقال علي وٱبن عباس: يجعلان في [نور][٢] الحجب. وقد يجمعان في نار جهنم؛ لأنهما قد عبِدَا من دون الله ولا تكون النار عذاباً لهما لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم. وفي مسند أبي داود الطيالسيّ، عن يزيد الرقاشيّ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر ثوران عَقيران في النار» وقيل: هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويقربان من الناس، فيلحقهم العرق لشدّة الحر؛ فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم. وقيل: يجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾؟ أي يقول ٱبن آدم، ويقال: أبو جهل؛ أي أين المهرب؟ قال الشاعر:

أيـن المفـرُّ والكِبـاشُ تَنتطِـحْ وأيُّ كَبْـشٍ حـاد عنهـا يَفْتَضِـحْ

الماورديّ: ويحتمل وجهين: **أحدهما**: «أَيْنَ الْمَفَرُّ» من الله ٱستحياء منه. **والثاني**: «أَيْنَ الْمَفَرُّ» من جهنم حذراً منها. ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين: **أحدهما** ـ أن يكون من الكافر خاصة في عَرْضة القيامة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه. **الثاني** ـ أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها. وقراءة العامة «الْمَفَرُّ» بفتح الفاء وٱختاره أبو عبيدة وأبو حاتم؛ لأنه مصدر. وقرأ ٱبن عباس ومجاهدوالحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم؛ قال الكسائي: هما لغتان مثل مَدَبّ ومَدِبّ، ومَصَحّ ومَصِحّ. وعن الزهريّ بكسر الميم وفتح الفاء. المهدويّ: من فتح الميم والفاء من «المفر» فهو مصدر

---

(١) راجع ١٤٦/٧. (٢) الزيادة من كتب التفسير.

بمعنى الفرار، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذي يفرّ إليه. ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيّد الفرار؛ فالمعنى أين الإنسان الجيّد الفرار ولن ينجو مع ذلك.

قلت: ومنه قول آمرىء القيس:

مِكَرٍّ مِفَرّ مُقْبِل مُدْبِرٍ مَعاً[1]

يريد أنه حسن الكرّ والفرّ جَيِّده. ﴿كَلَّا﴾ أي لا مفرّ فـ «كَلَّا» ردٌّ وهو من قول الله تعالى، ثم فسر هذا الردّ فقال: ﴿لاَ وَزَرَ﴾ أي لا ملجأ من النار. وكان آبن مسعود يقول: لا حِصن. وكان الحسن يقول: لا جبل. وآبن عباس يقول: لا ملجأ. وآبن جُبير: لا محيص ولا منعة. المعنى في ذلك كله واحد. والوَزَر في اللغة: ما يلجأ إليه من حِصن أو جبل أو غيرهما؛ قال الشاعر:

لَعَمْـرِيَ مـا لِلفتـى مِـن وَزَرْ ... مِـنَ المـوتِ يُـدْرِكُـه والكِبَـرْ

قال السديّ: كانوا في الدنيا إذا فزِعوا تحصّنوا في الجبال، فقال الله لهم: لاَ وَزَرَ يعصمكم يومئذٍ منّي؛ قال طرفة:

وَلَقَـدْ تَعْلَـمُ بَكْـرٌ أَنَّنـا ... فاضِلُو الرَّأْيِ وفِي الرَّوْعِ وَزَرْ

أي ملجأ للخائف. ويروى: وَقُرْ. ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أي المنتَهى؛ قاله قتادة. نظيره: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾. وقال آبن مسعود: إلى ربك المصير والمرجع. قيل: أي المستقرّ في الآخرة حيث يقرّه الله تعالى؛ إذ هو الحاكم بينهم. وقيل: إن «كَلَّا» من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفرّ قال لنفسه: ﴿كَلَّا لاَ وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ﴾ أي يخبر آبن آدم برًّا كان أو فاجراً ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾: أي بما أسلف من عمل سَيِّء أو صالح، أو أخَّر من سنّة سيّئة أو صالحة يُعْمَل بها بعده؛ قاله آبن عباس وآبن مسعود. وروى منصور عن مجاهد قال: ينبّأ بأوّل عمله وآخره. وقاله النخَعيّ. وقال آبن عباس أيضاً؛ أي بما قدّم من المعصية، وأخّر من الطاعة. وهو قول قتادة.

---

(١) تمام البيت:

كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقال ابن زيد: «بِمَا قَدَّمَ» من أمواله لنفسه «وَأَخَّرَ»: خلّف للورثة. وقال الضحاك: ينبأ بما قدّم من فرض، وأخّر من فرض. قال القشيريّ: وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال. ويجوز أن يكون عند الموت.

قلت: والأوّل أظهر؛ لما خرجه ابن ماجه في سننه من حديث الزهريّ، حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مما يَلْحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته عِلماً علّمه ونَشَره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته» وخرجه أبو نعَيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «سبع يجري أجرهنّ للعبد بعد موته وهو في قبره: من علّم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو وَرَّثَ مصحفاً أوترك ولداً يستغفر له بعد موته» فقوله: «بعد موته وهو في قبره» نصَّ على أن ذلك لا يكون عند الموت، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله، وإن كان يبشَّر بذلك في قبره. ودل على هذا أيضاً قوله الحقّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ[1] أَثْقَالِهِم﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلّونَهُمْ بِغَيْرِ[2] عِلْمٍ﴾ وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال. والله أعلم.

وفي الصحيح: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنةً كان له أجرها وأجر من عمِل بها بعده، من غير أن يُنقَص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

[١٤] ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ قال الأخفش: جعله هو البصيرة، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك. وقال ابن عباس: «بَصِيرَةٌ» أي شاهد، وهو شهود جوارحه

(١) راجع ١٣/ ٣٣٠. (٢) راجع ١٠/ ٩٦.

عليه: يداه بما بطش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما أبصر بهما. والبصيرة: الشاهد. وأنشد الفرّاء:

كأنّ على ذي العقلِ عَيْناً بصيرةً بِمَقْعَـدِهِ أو مَنْظَـرٍ هـو نـاظِـرُهُ
يُحاذِرُ حتى يَحسِبَ الناسَ كلَّهمْ من الخوفِ لا تَخْفَى عليهم سَرائِرُهُ

ودليل هذا التأويل من التنزيل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١). وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان ها هنا الجوارح، لأنها شاهدة على نفس الإنسان؛ فكأنه قال: بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة؛ قال معناه القتبيّ وغيره. وناس يقولون: هذه الهاء في قوله: «بَصِيرَةٌ» هي التي يسمّيها أهل الإعراب هاء المبالغة، كالهاء في قولهم: داهِية وعلّامة وراوية. وهو قول أبي عُبيد. وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شر؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ فيمن جعل المعاذير السُّتور. وهو قول السّديّ والضحاك. وقال بعض أهل التفسير: المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة؛ أي شاهد فحذف حرف الجر. ويجوز أن يكون «بصيرة» نعتاً لاسم مؤنث فيكون تقديره: بل الإنسان على نفسه عين بصيرة؛ وأنشد الفراء:

كأن على ذِي العقلِ عيناً بصيرةً

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ يعني بصير بعيوب غيره، جاهل بعيوب نفسه. ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ أي ولو أرْخى سُتوره. والسِّتر بلغة أهل اليمن: مِعذار؛ قاله الضحاك. وقال الشاعر:

ولكنهـا ضَنَّـتْ بِمنـزِلِ سـاعـةٍ علينـا وأَطَّـتْ فَـوْقَهَـا بـالْمَعَـاذِرِ

قال الزجاج: المعاذِر: السُّتور، والواحد مِعذار؛ أي وإن أرخى ستره؛ يريد أن يخفي عمله، فنفسه شاهدة عليه. وقيل: أي ولو اعتذر فقال لم أفعل شيئاً، لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فهو وإن اعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهد يكذِّب

(١) راجع ١٢/ ٢١٠.

عذره؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفرّاء والسّديّ أيضاً ومقاتل. قال مقاتل: أي لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك. نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فالمعاذير على هذا: مأخوذ من العذر؛ قال الشاعر:

وإياكَ والأمرَ الذي إنْ تَوسَّعَتْ مَوَارِدُهُ ضاقتْ عليكَ المصادِرُ
فما حَسنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ وليس له مِن سائِرِ الناسِ عاذر

وأعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعيّ فقال له: قد عذرتك غير مُعتذِر، إن المعاذِير يَشُوبها الكذب. وقال أبن عباس: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ أي لو تجرّد من ثيابه. حكاه الماورديّ.

قلت: والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب؛ ومنه قول النابغة:

ها إنَّ ذي عِذْرَةٌ إلاّ تكنْ نَفَعتْ فـإنّ صـاحِبَهـا مُشَـارِكُ النّكَـدِ

والدليل على هذا قوله تعالى في الكفار: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا[1] مُشْرِكِينَ﴾، وقوله تعالى في المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[2]. وفي الصحيح أنه يقول: «يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصليت وصمتُ وتصدّقتُ، ويُثني بخير ما أستطاع» الحديث. وقد تقدم في «حمَ السجدة»[3] وغيرها. والمعاذير والمعاذِر: جمع مَعْذرة؛ ويقال: عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْراً وعُذُراً، والاسم المَعْذِرة والعُذْرى؛ قال الشاعر[4]:

إنِّي حُدِذْتُ ولا عُذْرَى لمَحْدُودِ

---

(١) راجع ٦/٤٠١.
(٢) راجع ١٧/٢٨٩.
(٣) راجع ١٥/٣٥ ففيه معنى ما أشار إليه القرطبي وأما الحديث فقد أورده في سورة الأنعام ٦/٤٠٢.
(٤) قائله الجموح الظفري. وقيل: هو راشد بن عبد ربه. وعذرى مقصور. وفي «اللسان»: صواب إنشاده؛ لولا حددت. على إرادة أن تقديره: لولا أن حددت لأن لولا التي معناها أمتناع الشيء لوجود غيره هي مخصوصة بالأسماء وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أن.

وكذلك العِذْرة وهي مثل الرِّكْبَة والجِلْسَة؛ قال النابغة:

ها إنّ تا عِذْرَةٌ إلاّ تَكُنْ نَفَعَتْ فإنّ صاحِبَها قَدْ تاه في البَلَدِ[(١)]

وتضمّنت هذه الآية خمس مسائل:

الأولى ـ قال القاضي أبو بكر بن العربيّ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾: فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها بشهادة منه عليها؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا خلاف فيه؛ لأنه إخبار على وجه تنتفي التهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه، وهي المسألة:

الثانية ـ وقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[(٢)] ثم قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ[(٣)] سَيِّئاً﴾ وهو في الآثار كثير؛ قال النبي ﷺ: «ٱغْدُ يا أُنَيس على ٱمرأة هذا، فإنْ ٱعترفت فٱرجمها». فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك: الأمر المجتمع عليه عندنا في الرجل يهلك وله بنون، فيقول أحدهم: إن أبي قد أقرّ أن فلاناً ٱبنه، أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد، ولا يجوز إقرار الذي أقرّ إلا على نفسه في حصته من مال إبيه، يعطي الذي شهد له قدر الدين[(٤)] الذي يصيبه من المال الذي في يده. قال مالك: وتفسير ذلك أن يهلك الرجل ويترك ٱبنين ويترك ستمائة دينار، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقر أن فلاناً ٱبنه، فيكون على الذي شهد للذي ٱستحق مائة دينار، وذلك نصف ميراث المستلحَق لو لحق، وإن أقرّ له الآخر أخذ المائة الأخرى فٱستكمل حقّه وثبت نسبه. وهو أيضاً بمنزلة المرأة تقر بالدين على أبيها أو على زوجها

(١) تقدّم البيت برواية ها إن ذي ـ مشارك الكمد. وهما روايتان.

(٢) راجع ٤/ ١٢٤. (٣) راجع ٨/ ٢٤٠.

(٤) كلمة «الدين» ساقطة من ز، ط، ل، المتطوع.

وينكر ذلك الورثة، فعليها أن تدفع إلى الذي أقرت له قدر الذي يصيبها من ذلك الدين لو ثبت على الورثة كلهم، إن كانت ٱمرأة فورثت الثُّمن دفعت إلى الغريم ثمن دينه، وإن كانت ٱبنة ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه، على حساب هذا يدفع إليه من أقرّ له من النساء.

الثالثة ـ لا يصح الإقرار إلا من مكلَّف، لكن بشرط ألا يكون محجوراً عليه؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحقّ نفسه، فإن كان لحقّ غيره كالمريض كان منه ساقط، ومنه جائز. وبيانه في مسائل الفقه. وللعبد حالتان في الإقرار: **إحداهما**: في ابتدائه، ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم. **والثانية**: في ٱنتهائه، وذلك مثل إبهام الإقرار، وله صور كثيرة وأمهاتها ستّ: **الصورة الأولى** ـ أن يقول له عندي شيء، قال الشافعي: لو فَسَّره بتمرة أو كِسرة قُبل منه. والذي تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قَدر، فإذا فسره به قُبل منه وحلف عليه. **الصورة الثانية** ـ أن يفسِّر هذا بخمر أو خنزير أو ما لا يكون مالاً في الشريعة: لم يُقْبل بٱتفاق ولو ساعده عليه المقرّ له. **الصورة الثالثة** ـ أن يفسّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين أو كلب، [فإن الحاكم يحكم عليه في ذلك بما يراه من ردّ وإمضاء][1] فإن ردّه لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء، لأن الحكم قد نفذ بإبطاله. وقال بعض أصحاب الشافعي: يلزم الخمر والخنزير؛ وهو قول باطل. وقال أبو حنيفة: إذا قال له عليّ شيءٌ لم يقبل تفسيره إلا بِمَكيل أو موزون، لأنه لا يثبت في الذمة بنفسه إلا هما. وهذا ضعيف؛ فإن غيرهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعاً. **الصورة الرابعة** ـ إذا قال له: عندي مالٌ قُبِلَ تفسيره بما لا يكون مالاً في العادة كالدرهم والدرهمين، ما لم يجىء من قرينة الحال ما يحكم عليه بأكثر منه. **الصورة الخامسة** ـ أن يقول له: عندي مال كثير أو عظيم؛ فقال الشافعيّ: يُقبل في الحبّة. وقال أبو حنيفة: لا يُقبل إلا في نصاب الزكاة. وقال علماؤنا في ذلك أقوالاً مختلفة. منها نصاب السرقة والزكاة والديّة وأقله عندي نصاب السّرقة

---

(١) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع.

لأنه لا يُبَان عُضوُ المسلم إلا في مال عظيم. وبه قال أكثر الحنفية. ومن يعجب فيتعجّب لقول الليث بن سعد: إنه لا يُقبل في أقل من اثنين وسبعين درهماً. فقيل له: ومن أين تقول ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ويومَ حُنَيْنٍ﴾[١] وغزواته وسراياه كانت اثنتين وسبعين. وهذا لا يصح؛ لأنه أخرج حُنَيْنا منها، وكان حقّه أن يقول يقبل في أحد وسبعين، وقد قال الله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾، وقال: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾، وقال: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾. **الصورة السادسة** ـ إذا قال له: عندي عشرة أو مائة أو ألف، فإنه يُفَسّرها بما شاء ويُقْبل منه، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهماً فإنه يُفسِّر المبهم ويُقبَل منه. وبه قال الشافعيّ. وقال أبو حنيفة: إن عطف على العدد المبهم مكيلاً أو موزوناً كان تفسيراً؛ كقوله: مائة وخمسون درهماً؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين، والخمسين تفسير للمائة. وقال ابن خيران الإصطخري من أصحاب الشافعيّ: الدرهم لا يكون تفسيراً في المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفسِّر هو المائة بما شاء.

المسألة الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ ومعناه لو اعتذر بعد الإقرار لم يُقبل منه. وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقرّ في الحدود التي هي خالص حقّ الله؛ فقال أكثرهم منهم الشافعيّ وأبو حنيفة: يقبل رجوعه بعد الإقرار. وقال به مالك في أحد قوليه، وقال في القول الآخر: لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهاً صحيحاً. والصحيح جواز الرجوع مطلقاً؛ لما روى الأئمة منهم البخاري ومسلم أن النبي ﷺ رد المقرّ بالزنى مراراً أربعاً كل مرّة يُعرِض عنه، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبي ﷺ وقال: «أبكَ جنون» قال؛ لا. قال: «أحْصِنتَ» قال: نعم. وفي حديث البخاريّ: «لعلّكَ قَبّلت أو غمزت أو نظرتَ». وفي النّسائيّ وأبي داود: حتى قال له في الخامسة «أجامعتها»[٢] قال: نعم. قال: «حتى غاب ذلك منك في ذلك منها» قال: نعم. قال: «كما يغيب المِرود في المُكْحَلة والرِّشاء في البئر». قال: نعم. ثم قال: «هل تدري ما الزنى» قال: نعم؛ أتيت منها حراماً مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالاً. قال: «فما تريد مني»؟

---

(١) جملة «ويوم حنين» ساقطة من ز، ط والمطبوع. (٢) اللفظ في رواية لأبي داود.

قال: أريد أن تطهرني. قال: فأمر به فَرُجم. قال الترمذيّ وأبو داود: فلما وجد مَسَّ الحجارة فَرَّ يشتد[1]، فضربه رجل بلَحي جَمَل، وضربه الناس حتى مات. فقال النبي ﷺ: «هَلّا تركتموه» وقال أبو داود والنَّسائي: ليتثبت رسول الله ﷺ، فأما لترك حَدّ فلا. وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله. وفي قوله عليه السلام: «لعلك قَبّلْتَ أو غمزتَ» إشارة إلى قول مالك: إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجهاً.

الخامسة ـ وهذا في الحر المالك لأمر نفسه، فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين: إما أن يقرّ على بدنه، أو على ما في يده وذمته؛ فإن أقر على ما في بدنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه. وقال محمد بن الحسن: لا يقبل ذلك منه؛ لأن بدنه مستغرَق لحقّ السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بَدَنه؛ ودليلنا قوله ﷺ: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بسَتْر الله، فإن من يُبْد لنا صفحته نُقِم عليه الحَد». المعنى: أن محل العقوبة أصل الخلقة، وهي [الدُّمْية][2] في الآدمية، ولا حقّ للسيد فيها، وإنما حقّه في الوصف والتبع، وهي المالية الطارئة عليه؛ ألا ترى أنه لو أقرّ بمال لم يقبل، حتى قال أبو حنيفة: إنه لو قال سرقت هذه السلعة أنه لم تقطع يده ويأخذها المقرّ له. وقال علماؤنا: السِّلْعة للسيد ويُتبَع العبدُ بقيمتها إذا عَتَق؛ لأن مال العبد للسيد إجماعاً، فلا يُقبل قوله فيه ولا إقراره عليه، لا سيما وأبو حنيفة يقول: إن العبد لا ملك له. ولا يصح أن يَمْلِك ولا يملك، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملّكه، ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين. والله أعلم.

[١٦] ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) يشتد: يعدو. (٢) التصحيح من ابن العربي. وفي الأصول «الذمة».

قوله تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ في الترمذي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرّك به لسانه، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: فكان يحرّك به شفتيه. وحرّك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . ولفظ مسلم عن ابن جُبير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدّة، كان يحرّك شفتيه ، فقال لي ابن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحرّكهما؛ فقال سعيد: أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحرّكهما، فحرك شفتيه ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ به * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال جمعه في صدرك ثم تقرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قال فاستمع له وأنصت. ثم إن علينا أن نقرأه؛ قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام استمع ، وإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي ﷺ كما أقرأه ؛ خرّجه البخاري أيضاً . ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ وقد[1] تقدّم . وقال عامر الشَّعبي : إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبّه له، وحلاوته في لسانه ، فنُهي عن ذلك حتى يجتمع ؛ لأن بعضه مرتبط ببعض . وقيل : كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي حرّك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه ، فنزلت: ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ونزل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾ ونزل: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ قاله ابن عباس. «وقرآنه» أي وقراءته عليك. والقراءة والقرآن في قول الفراء مصدران . وقال قتادة : « فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » أي فاتبع شرائعه وأحكامه . وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام ؛ قاله قتادة . وقيل: ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما . وقيل : أي إن علينا أن نبيّنه بلسانك . قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال ابن عباس: أي إن

(١) راجع ١١/ ٢٥٠.

أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه. وقيل: أي «كَلاّ» لاَ يُصلّون ولا يزكّون يريد كفّار مكة. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ أي بل تحبون يا كفار أهل مكة ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ أي الدار الدنيا والحياة فيها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي تَدَعون ﴿الآخِرَةَ﴾ والعمل لها. وفي بعض التفسير قال: الآخرة الجنة. وقرأ أهل المدينة والكوفيون «بَلْ تُحِبُّونَ» «وَتَذَرُونَ» بالتاء فيهما على الخطاب وآختاره أبو عبيد؛ قال: ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء؛ لذكر الإنسان قبل ذلك. الباقون بالياء على الخبر، وهو آختيار أبي حاتم، فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ﴾ وهو بمعنى الناس. ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ في المقصود؛ نظيره: ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾[1].

[٢٢] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢﴾.

[٢٣] ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾.

[٢٤] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤﴾.

[٢٥] ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ **الأوّل**: من النّضْرة التي هي الحسن والنّعمة. والثاني من النظر أي وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة؛ يقال: نَضَرهم اللّهُ يَنضُرُهم نَضْرة ونَضَارة وهو الإشراق والعيش والغنى؛ ومنه الحديث «نَضّر[2] الله آمرأ سمع مقالتي فوعاها». «إِلَى رَبِّهَا» إلى خالقها ومالكها «نَاظِرَةٌ» أي تنظر إلى ربها؛ على هذا جمهور العلماء. وفي الباب حديث صُهَيب خرجه مسلم وقد مضى في «يونس» عند قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[3]. وكان آبن عمر يقول: أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشية؛ ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. وروى يزيد النحوي عن عِكْرمة قال: تنظر إلى ربها نظراً. وكان الحسن يقول: نضرت وجوههم ونظروا إلى ربّهم.

---

(١) راجع ص ١٤٨ من هذا الجزء.

(٢) يروى الحديث بالتخفيف والتشديد من النضارة وهي في الأصل حسن الوجه والبريق.

(٣) راجع ٨/ ٣٣٠.

وقيل: إن النظر هنا ٱنتظار ما لهم عند الله من الثواب. وروي عن ٱبن عمر ومجاهد. وقال عِكرمة: تنتظر أمر ربها. حكاه الماورديّ عن ٱبن عمر وعِكرمة أيضاً. وليس معروفاً إلا عن مجاهد وحده. وٱحتجوا بقوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَارَ﴾ وهذا القول ضعيف جدًّا، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار. وفي الترمذيّ عن ٱبن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جِنانه وأزواجه وخَدمه وسُرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشيّة» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال هذا حديث غريب. وقد روي عن ٱبن عمر ولم يرفعه. وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلّ وعزّ إلا رِداء الكبرياء على وجهه في جَنّة عدن». وروى جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عِياناً كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون في رؤيته؛ فإن ٱستطعتم ألاّ تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فٱفعلوا». ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ متّفق عليه. وخرجه أيضاً أبو داود والترمذيّ وقال حديث حسن صحيح. وخرج أبو داود عن أبي رَزِين العُقَيليّ قال: قلت يا رسول الله أكلّنا يرى ربه؟ قال ٱبن معاذ: مُخْلِياً به يوم القيامة؟ قال: «نعم يا أبا رَزِين» قال: وما آية ذلك في خَلْقه؟ قال: «يا أبا رَزِين أليس كلّكم يَرَى القمر» قال ٱبن معاذ: ليلة البدر مُخْلِياً به. قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم» [قال ٱبن معاذ[1] قال]: «فإنما هو خلق من خلق الله ـ يعني القمر ـ فالله أجل وأعظم». وفي كتاب النسائيّ عن صُهَيب قال: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر، ولا أقرّ لأعينهم» وفي التفسير لأبي إسحاق الثّعلبيّ عن الزبير عن جابر قال:

(١) الزيادة من مسند أبي داود.

قال رسول الله ﷺ: «يتجلّى ربّنا عزّ وجلّ حتى ينظروا إلى وجهه، فيخرّون له سُجّداً، فيقول ٱرفعوا رءوسكم فليس هذا بيوم عِبادة» قال الثّعلبيّ: وقول مجاهد إنها بمعنى تنتظر الثواب من ربّها ولا يراه شيء من خلقه، فتأويل مدخول؛ لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا نظرته؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾، و ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا: نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقروناً بذكر إلى، وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعِيان. وقال الأزهريّ: إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربّها خطأ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون نظرت إليه: إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته؛ قال:

فـإنّكُمـا إنْ تَنْظُـرانِـيَ سـاعـةً مِن الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمّ جُنْدُبِ

لما أراد الانتظار قال تنظراني، ولم يقل تنظران إليّ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه؛ قال:

نظـرتُ إليهـا والنُّجـومُ كـأنَّهَـا مَصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ(١)

وقال آخر:

نظرتُ إليها بالمُحصَّبِ مِنْ مِنًى ولِي نَظَرٌ(٢) لولا التَّحَرُّجُ عارِمُ

وقال آخر:

إنّـي إليـكَ لِمَـا وَعَـدَتَ لنَـاظِـرٌ نَظَرُ الفقيرِ إلى الغنيّ المُوسِرِ

أي إني أنظر إليك بذلّ؛ لأن نظر الذلّ والخضوع أرقّ لقلب المسئول؛ فأما ما ٱستدلوا به من قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَارَ﴾ فإنما ذلك

---

(١) تشب: توقد. والقفال جمع قافل وهو الراجع من السفر. البيت من قصيدة لأمرىء القيس.
(٢) في نسخ الأصل نظرة، والصواب ما ذكرنا كما في ديوان قائله، وهو عمر بن ربيعة.

في الدنيا. وقد مضى القول فيه[١] في موضعه مستوفًى. وقال عطية العوفي: ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته، ونظره يحيط بها؛ يدل عليه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال القشيريّ أبو نصر: وقيل: «إِلَى» واحد الآلاء: أي نعمه منتظرة وهذا أيضاً باطل؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء، ثم الآلاء: نعمه الدُّفَّع[٢]، وهم في الجنة لا ينتظرون دفع نقمه عنهم، والمنتظر للشيء مُتنغِّص العيش، فلا يوصف أهل الجنة بذلك. وقيل: أضاف النظر إلى الوجه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والماء يجري في النهر لا النهر. ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ أي على عينيه. ثم لا يبعد قلب العادة غداً، حتى يخلق الرؤية والنظر في الوجه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾، فقيل: يا رسول الله! كيف يمشون في النار على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم».

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة. وفي الصحاح: وبَسَر الفحلُ الناقةَ وابْتسرها: إذا ضربها من غير ضَبَعَة[٣]. وبَسَر الرجُل وجهَه بسُوراً أي كَلَح؛ يقال: عَبَس وبَسَر. وقال السّديّ: «بَاسِرَةٌ» أي متغيرة والمعنى واحد. ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي توقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم؛ يقال: فقرتْه الفاقرة: أي كسرت فَقَار ظهره. قال معناه مجاهد وغيره. وقال قتادة: الفاقرة الشرّ. السُّديّ: الهلاك. ابن عباس وابن زيد: دخول النار. والمعنى متقارب. وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم؛ قاله الأصمعي. يقال: فَقَرتُ أنفَ البعيرِ: إذا حزرتَه بحديدة ثم جعلتَ على موضع الحزّ الجَرِيرَ[٤] وعليه وَتَرٌ مَلْويّ، لِتذلِّلَه بذلك وترُوضَه؛ ومنه قولهم: قد عُمِل به الفاقرة. وقال النابغة:

أَبَى لِيَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقَابِلِي ... وضَرْبَةُ فَأْسٍ فوقَ رأسِيَ فَاقِرَهْ

أي كاسرة.

---

(١) راجع ٧/ ٥٤.
(٢) هكذا في كل الأصول.
(٣) ضبعت الناقة: اشتهت الفحل.
(٤) الجرير: حبل من أدم يخطم به البعير.

[٢٦] ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ «كَلاَّ» رَدْع وزَجْر؛ أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة؛ ثم ٱستأنف فقال: «إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ» أي بلغت النفس أو الروح التراقي؛ فأخبر عما لم يجر له ذكر، لعلم المخاطب به؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ وقد تقدّم[1]. وقيل: «كَلاَّ» معناه حقًّا؛ أي حقًّا أن المساق إلى الله ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي إذا ٱرتقت النفس إلى التراقي. وكان ٱبن عباس يقول: إذا بلغت نفس الكافر التراقي. والتراقي جمع تَرْقُوة وهي العظام المكتنفة لنُقْرة النَّحر، وهو مقدّم الحلق من أعلى الصدر. موضع الحَشْرجة؛ قال دُرَيد بن الصِّمّة[2]:

وَرُبَّ عَظِيمَـةٍ دافَعْـتَ عَنْهُـمْ ... وقَـدْ بَلَغَـتْ نُفُوسُهُـمُ التَّـرَاقِـي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ التراقي، والمقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ ٱختلُف فيه؛ فقيل: هو من الرقية؛ عن ٱبن عباس وعِكرمة وغيرهما. روى سِمَاك عن عِكرمة قال: مَن راقٍ يَرْقِي: أي يَشْفِي. وروى ميمون بن مِهران عن ٱبن عباس: أي هل من طبيب يَشْفِيه؛ وقاله أبو قِلابة وقتادة؛ وقال الشاعر:

هَلْ لِلْفَتى مِنْ بَناتِ الدَّهْر مِنْ وَاقِ ... أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاق

(١) راجع ١٥/ ١٩٥ و ١٧/ ٢٣٠.

(٢) كذا في الأصل. والبيت لابنته عمرة من قصيدة لها ترثي بها أباها كما في شعراء النصرانية.

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس؛ أي من يقدر أن يَرْقِيَ من الموت. وعن ٱبن عباس أيضاً وأبي الجوزاء أنه من رَقِيَ يَرْقَى: إذا صَعِد، والمعنى: من يَرقَى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إن مَلَك الموت يقول مَن راقٍ؟ أي من يَرْقَى بهذه النفس؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها، فيقول ملَكَ الموت: يا فلان ٱصعد بها. وأظهر عاصم وقوم النون في قوله تعالى: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ واللام في قوله: ﴿بَلْ رَانَ﴾ لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المَرْقة، وبَرَّان في تثنية البرّ. والصحيح ترك الإظهار، وكسرة القاف في «مَنْ رَاق»، وفتحة النون في «بَلْ رَانَ» تكفي في زوالِ اللبس. وأمثل مما ذُكِر: قصد الوقف على «مَنْ» و «بَلْ»، فأظهرهما؛ قاله القشيريّ.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ﴾ أي أيقن الإنسان ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أي فراق الدنيا والأهل والمال والولد، وذلك حين عاين الملائكة. وقال الشاعر:

فـــرَاقٌ ليـــس يُشبهُـــهُ فِـــرَاقُ   قد ٱنقطع الرجاءُ عن التَّلَاقِ

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي فٱتصلت الشدّة بالشدّة؛ شدّة آخر الدنيا بشدة أوّل الآخرة؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. وقال الشعبي وغيره: المعنى ٱلتفت ساقا الإنسان عند الموت من شدّة الكرب. وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى. وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضاً: هما ساقا الإنسان إذا التفّتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: ٱلتفت ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضاً: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوّالاً. قال النحاس: القول الأوّل أحسنها. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ٱبن عباس: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال: آخرَ يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة، فتلتقي الشدّة بالشدّة إلا من رحمه الله؛ أي شدّة كرب الموت بشدّة هول المطلع؛ والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ وقال. مجاهد: بلاء ببلاء. يقول: تتابعت عليه الشدائد. وقال الضحاك وٱبن زيد: ٱجتمع عليه أمران شديدان: الناس يُجهِّزون جسده، والملائكة يُجهِّزون رُوحه، والعرب لا تذكر الساق إلا في المِحن

والشدائد العظام؛ ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق.

قال الشاعر: وقامتِ الحربُ بنا على ساقْ[١]

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «نٓ وَالْقَلَمِ»[٢]. وقال قوم: الكافر تُعَذَّب روحه عند خروج نفسه، فهذه الساق الأولى، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ أي إلى خالقك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿الْمَسَاقُ﴾ أي المرجع. وفي بعض التفاسير قال: يسوقه مَلَكه الذي كان يحفظ عليه السيئات. والمَسَاق: المصدر من ساق يسوق، كالمقال من قال يقول.

[٣١] ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي لم يصدّق أبو جهل ولم يصلّ. وقيل: يرجع هذا إلى الإنسان في أوّل السورة، وهو اسم جنس. والأوّل قول ابن عباس. أي لم يصدّق بالرسالة «وَلَا صَلَّىٰ» ودعا لربّه، وصلّى على رسوله. وقال قتادة: فلا صدّق بكتاب الله، ولا صلّى لله. وقيل: ولا صدّق بمال له، ذخراً له عند الله، ولا صلّى الصلوات التي أمره الله بها. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. قال الكسائي: «لَا» بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره؛ تقول العرب: لا عبدُ الله خارج ولا فلان، ولا تقول: مررت برجل لا مُحْسِن حتى يقال ولا مُجْمِل، وقوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ليس من هذا القبيل؛ لأن معناه أفلا اقتحم؛ أي فهلا اقتحم، فحذف ألف الاستفهام. وقال الأخفش: «فَلَا صَدَّقَ» أي لم يصدّق؛ كقوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾ أي لم يقتحم، ولم يشترط أن يُعْقِبه

---

(١) صدر البيت:

صبرا أمام إنه شرٌّباق

(٢) راجع ٢٤٨/١٨.

بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذهب، أي لم يذهب، فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل؛ ومنه قول زهير:

فَلاَ هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمِ[١]

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمطَّى﴾ أي يتبختر، ٱفتخاراً بذلك؛ قاله مجاهد وغيره. مجاهد: المراد به أبو جهل. وقيل: «يَتَمَطَّى» من المَطَا وهو الظَّهْر، والمعنى يَلْوِي مَطَاه. وقيل: أصله يتمطط، وهو التمدّد من التكسّل والتثاقل، فهو يتثاقل عن الداعي إلى الحق؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف، والتمطي يدل على قلة الاكتراث، وهو التمدّد، كأنه يمدّ ظهره ويلويه من التبختر. والمَطِيطة الماء الخاثر في أسفل الحوض؛ لأنه يتمطى أي يتمدّد؛ وفي الخبر: «إذا مشت أمّتي المُطَيْطاءَ[٢] وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم». والمُطَيْطاء: التبختر ومدّ اليدين في المشي.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾: تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، أي فهو وعيد أربعة لأربعة؛ كما روي أنها نزلت في أبي جهل الجاهلِ بربّه فقال: ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أي لا صدّق رسول الله، ولا وقف بين يديّ فصلّى، ولكن كذّب رسولي، وتولّى عن التصلية بين يديّ. فتَرْك التصديق خَصْلة، والتكذيب خَصْلة، وترك الصلاة خَصْلة، والتولي عن الله تعالى خَصْلة؛ فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة. والله أعلم. لا يقال: فإن قوله: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ خَصْلة خامسة؛ فإنّا نقول: تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولّي، فأخبر عنها. وذلك بَيِّنٌ في قول قتادة على ما نذكره. وقيل: إن رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم[٣]، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد، مما يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله ﷺ

(١) صدر البيت:

وكان طوى كشحا على مستكنة

(٢) المطيطاء يمدّ ويقصر، قال ٱبن الأثير: وهي من المصغرات التي لم يستعمل لها مكبر.

(٣) في ز، ط، ل: «ذات ليلة».

بيده، فهزّه مرّةً أو مرتين ثم قال: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» فقال له أبو جهل: أتهددُني؟ فوالله إني لأَعَزُّ أهل الوادي وأكرمه. ونزل على رسول الله ﷺ كما قال لأبي جهل. وهي كلمة وعيد. قال الشاعر:

فَـأَوْلَـى ثـم أَوْلَـى ثـم أَوْلَـى وهَـلْ لِلـدَّرِّ يُحْلَـبُ مـن مَـرَدِّ

قال قتادة: أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر، فأخذ النبي ﷺ بيده فقال: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾. فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئاً، إني لأعزُّ مَنْ بين جبليها. فلما كان يوم بَدْر أشرف على المسلمين فقال: لا يُعْبَد اللّهُ بعد هذا اليوم أبداً. فضرب الله عنقه، وقتله شر قتْلة. وقيل: معناه: الويل لك؛ ومنه قول الخنساء:

هَمَمْـتُ بنفسـيَ كُـلَّ الهُمُـومِ فَـأَوْلَـى لِنَفْسِـيَ أَوْلَـى لَهَـا
سَـأَحْمِـلُ نفسـي علـى آلـةٍ[(١)] فـإمَّـا عليهـا وإمَّـا لَهَـا

الآلة: الحالة، والآلة: السرير أيضاً الذي يحمل عليه الميت؛ وعلى هذا التأويل قيل: هو من المقلوب؛ كأنه قيل: أَوْيَل، ثم أخر الحرف المعتل، والمعنى: الويل لك حيًّا، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار؛ وهذا التكرير كما قال[(٢)]:

لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

أي لك الويل، ثم الويل، ثم الويل، وضعف هذا القول. وقيل: معناه الذم لك أولى من تركه، إلا أنه كثير في الكلام فحذف. وقيل: المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب. وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: قال الأصمعي «أَوْلَى» في كلام العرب معناه مُقَاربة الهلاك، كأنه يقول: قد وَلِيتَ الهلاك، قد دَانَيْتَ الهلاكَ؛ وأصله من الوَلْي، وهو القُرْبَ؛

---

(١) في أ «على أَلَة» بفتح فشد، وهي الحربة. وصوابه آلة أي حالة.

(٢) هو أمرؤ القيس، والبيت بتمامه:

ويـوم دخلـت الخـدر خـدر عنيـزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذينَ يَلونَكُم مِنَ الْكُفَّار﴾ أي يَقرُبُون منكم؛ وأنشد الأصمعي:

وَأَوْلَى أن يكون له الولاَءُ

أي قارب أن يكون له؛ وأنشد أيضاً:

أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا

أي قد دنا صاحبها [من][١] الكمد. وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعيّ ويقول: ليس أحد يفسّر كتفسير الأصمعي. النحاس: العرب تقول أَوْلى لكَ: كدتَ تَهلِك ثم أَفْلَتّ، وكأنّ تقديره: أولى لك وأولى بك الهلكة. المهدويّ قال: ولا تكون أَوْلى (أَفْعَل منك)، وتكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: الوعيد أولى له من غيره؛ لأن أبا زيد[٢] قد حكى: أَوْلاَةُ الآن: إذا أَوْعَدوا. فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك. و «لَكَ» خبر عن «أَوْلَى». ولم ينصرف «أَوْلَى» لأنه صار علماً للوعيد، فصار كرجل اسمه أحمد. وقيل: التكرير فيه على معنى ألزم لك على عملك السَّيء الأوّل، ثم على الثاني، والثالث، والرابع، كما تقدّم.

[٣٦] ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾. [٣٧] ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ﴾ أي يظن ابن آدم ﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي أن يُخَلَّى مُهمَلاً، فلا يُؤمَر ولا يُنهَى؛ قاله ابن زيد ومجاهد، ومنه إبل سُدًى: ترعى بلا راعٍ. وقيل: أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يُبعث. وقال الشاعر:

فأُقْسِمُ بالله جهدَ اليَمِـ ـينِ ما تَرَكَ اللّهُ شيئاً سُدَى

(١) من: ساقطة من الأصول.

(٢) في (اللسان: ولى) وأسند الحكاية إلى ابن جني. قال: وحكى ابن جني: أولاة الآن، فأنت أولى. قال: وهذا يدل على أنه اسم لا فعل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمنَى﴾ أي من قطرة ماء تُمنَى في الرَّحم، أي تُراق فيه؛ ولذلك سمّيت (مِنًى) لإراقة الدماء.. وقد تقدّم[١]. والنطفة: الماء القليل؛ يقال: نَطَف الماء: إذا قطر. أي ألم يك ماءً قليلاً في صُلْب الرجل وترائب المرأة. وقرأ حفص «مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى» بالياء، وهي قراءة ٱبن محيصن ومجاهد ويعقوب وعَيّاش عن أبي عمرو، وٱختاره أبو عبيد لأجل المنيّ. الباقون بالتاء لأجل النطفة، وٱختاره أبو حاتم. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي دماً بعد النطفة، أي قد رَتبه تعالى بهذا كله على خِسَّة قدره. ثم قال: ﴿فَخَلَقَ﴾ أي فقدّر ﴿فَسَوَّى﴾ أي فسوّاه تسويةً، وعدَّله تعديلاً، بجعل الروح فيه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي من الإنسان. وقيل: من المنيّ. ﴿الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ أي الرجل والمرأة. وقد ٱحتج بهذا من رأى إسقاط الخُنثى. وقد مضى في سورة «الشورى»[٢] أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجتا مخرج الغالب. وقد مضى في أوّل سورة «النساء»[٣] أيضاً القول فيه، وذكرنا في آية المواريث حكمه، فلا معنى لإعادته ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أي أليس الذي قدَر على خلق هذه النَّسَمة[٤] من قطرة من ماء ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أي على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى . وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: «سبحانك اللّهم، بَلَى» وقال ٱبن عباس: من «قرأ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَى ﴾ إماماً كان أو غيره فليقل: سُبْحَانَ رَبِّيَ ٱلأَعْلَى». ومن قرأ ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ إلى آخرها إماماً كان أو غيره فليقل: «سبحانك اللّهُمَّ، بَلَى»[٥] ذكره الثعلبيّ من حديث أبي إسحاق السَّبِيعيّ عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس. ختمت السورة والحمد[٦] لله.

---

(١) راجع ١١٨/١٧ و ٢١٦.

(٢) راجع ٤٨/١٦.

(٣) راجع ٣/٥.

(٤) في ح: «المضغة».

(٥) في أ، ح: «سبحانك اللهم وبحمدك».

(٦) في ح: «والحمد لله على كل حال».